مؤنس الرزاز

الذاكرة المستباحة

قبّعتان ورأس واحد

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

روايتان

مؤنس الرزاز

الذاكرة المستباحة

قنعتان وراس واحد

حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:

بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن:

دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، تلكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ١٤٩٧؟

الطبعة الأولى
١٩٩١

مؤنس الرزاز

الذاكرة المستباحة
قبّعتان ورأس واحد

روايتان

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

- ١ -

يتوغل الليل في الزمن . وينام منقذ . والشيخ يفتح عيناً ويغمض اخرى مثل ثعلب . ينتظر وقع الخطى الغريبة ، وصرير الباب . ينكمش في سريره ، يصغي الى الصمت البليغ مترقباً متربصاً . ويتناهى الى مسامعه الصرير الذي يحترفه الباب . و« منقذ » يغط في نوم عميق . ويغطي صوت صرير الباب بشخيره الذي يزلزل فضاء البيت الصامت الثابت القديم . خطى تتقدم ، لوقعها رنة الاختلاس . خطى تقتحم ، تدخل على رؤوس الاصابع . وخطى تزحف رشيقة من الداخل ، تتلقف الخطى المتسللة . والباب يوصد في العتمة الركيكة التي تشوبها شائبة الضياء الشحيحة المشعة باستحياء من النواصة . والشيخ يتكلف النوم ، ويراقب من كمينه الخفي في عتمة غرفته ، عيناه تطلان من تحت غطاء السرير . يرى فستان الخادمة ، ولا يرى رأسها . ويلمح يد ذكر تعبث بالفستان ، ثم تختفي . تنتقل الخطوات ووقعها السري المفضوح من مدخل البيت الى الصالة . يصغي الشيخ الى الهمس . همس يتخذ صوت الفحيح تارة ونبرة الغمغمة تارة اخرى . كل شيء منظم ومترابط بدقة . بغتة تفلت ضحكة من فم الخادمة الحمقاء . ثم تنقطع كأنما تسترد وتسترجع استرجاعاً . لا بد ان الرجل قد كتمها . وضع راحته على فمها وهمس :

- هس . . .

الشيخ لا يرى شيئاً الآن ، لكنه يسمع اصواتاً يكاد يبصرها . أصوات ذات دلالة ، ضحكة مغناج خافتة ، وحشرجة صوت خشن . انه يبصر

الاصوات ذات الدلالة . ماذا يمكن ان تعني ضحكة مغناج خافتة ، وأنين موجع لرجل يقبع في قبضة عتمة تعتصر امرأة . . . سوى ما يراه دون ان يبصره .

يفكر للمرة الألف بالاتصال بالشرطة . لكنه يخاف انتقام الرجل من « منقذ » لعله مجرم محترف خريج سجون . والشيخ حائر ساخط . . لكن شعوراً غريزياً بالتسلية يخالجه . الموقف المزعج كله ، يسليه . وهو الذي يعاني من الأرق ، موقف بغيض . والشيخ يكره الاعتراف بأن هذا الموقف البغيض الخطر يسليه . ينكر الاعتراف لنفسه بأن هذه الجريمة النكراء التي تتكرر كل ليلة تثير فضوله . ويفكر في نفسه بشدة انه ينتظر هذه اللحظات كل ليلة بفارغ صبر . مثل مشاهد يتفرج على فيلم مرعب . صحيح انه لا يضحك متعة ، لكنه يحبس انفاسه ولا يغادر مقعده في صالة السينما ، وانما يتشبث فيه ، ويلعن الساعة التي قرر فيها مشاهدة هذا الفيلم البغيض البشع الذي لا تستطيع عيناه منه فكاكاً .

٢

تنفس الصباح ، الصمت الذي يعصر البيت ينتظر رنين جرس شلة الشيوخ الذين يسمون أنفسهم « المحاربون القدامى » . منقذ يسعل وهو يغسل وجهه ، وه آريا » تعد القهوة . منقذ لن يستقبل المحاربين القدامى قبل ان يحلق ذقنه ويتأهب تماماً للقيام بمراسيم استقبالهم بدقة .

سيشرق وجه والده حين يستقبلهم . سيشرق ذلك الوجه المظلم المجلل بغيوم الوحشة والنسيان الداكنة . سيسأل أكبر اصحابه سناً :

- هل احتسيت حليب الصباح ؟

سيهز الشيخ المسن رأسه بالايجاب ممتعضاً . وسيدرك ابو منقذ ان كبير الشيوخ يكذب لأنه لا يستسيغ مذاق الحليب . لكن الحليب ضروري للقرحة . وسوف يأمر ابو منقذ الخادمة السيرلانكية « آريا » باعداد كأس من الحليب لكبير الشيوخ . سيغمغم كبير الشيوخ معترضاً مستنكراً ، وسيقلب

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

سحنته . لكنه سينفذ أمر أبي منقذ في نهاية الامر . وكالعادة سوف يرفع الكأس الى شفتيه ، ويضغط على انفه باصبعيه ويأتي على الحليب بجرعة واحدة . ثم يضع الكأس جانباً بيده المرتعشة ، ويقول بتقزز :

ـ نفذنا الأوامر سيدي . . . غيره !

وسيلتفت أبو منقذ الى الشيخ الثاني ويسأله إن كان قد تناول قرص الدواء . وسيهز الشيخ الثاني رأسه بالايجاب . وكالعادة سوف يسأله ابو منقذ ان يقسم برحمة يوسف العظمة أو جمال عبد الناصر . فيقسم الشيخ الثاني قائلاً :

ـ ورحمة الشريف حسين بن علي انني تناولت قرص الدواء .

وسيراقبهم الشيخ الثالث الاطرش وهو يميل الى الامام منحني الظهر متكئاً على عصاه . وسوف يقول بصفته الجار الذي لا يمتلك هاتفاً :

ـ هل جاءت الجرائد ؟ هل رن الهاتف ؟ هل سأل عني أحد ؟

وسيكتفي أبو منقذ برفع حاجبيه نافياً .

بعد أن قام منقذ بكل طقوس الاستقبال التي يعنى بتفاصيلها على خير وجه ، تقدمت « الشلة » (التي تجتمع كل صباح عند الاستاذ عبد الرحيم الامين ساعة من الزمن) الى الصالة حاملة معها دهشة العالم الخارجي . كان الاستاذ عبد الرحيم (ابو منقذ) بانتظارهم في صدر الصالة على مقعده المتحرك . حيوه جميعاً بأصوات غير متناسقة ، ثم اتخذ كل منهم مجلسه المعروف الذي لا يغيره مهما كانت الظروف . فلكل واحد منهم كنبة اعتاد ان يجلس عليها ، حتى انها اذا كانت منحرفة قليلاً نحو اليمين أو الشمال . . طلب من منقذ اعادتها الى مكانها الثابت الدائم . . وظل واقفاً حتى يطمئن الى أن منقذ قد أعاد الى الكون والصالة والعادة الثبات والانتظام .

بخطى متلكئة متثاقلة تنتزع من الارض انتزاعاً كانوا يسعون الى تلك الكنبات .

كان منقذ يعتز بهم ويقول لفتحي بقال الحارة :

- كل واحد منهم محارب قديم . هذا قاتل في ميسلون ، والثاني في الثورة العربية الكبرى ، والثالث شارك طفلاً في هيه الكرك ، والرابع حارب مع سلطان باشا الاطرش ، والخامس خاض ثورة ١٩٣٦ .

فيهز فتحي البقال رأسه باستخفاف ينم عن سلبية وهو يتناول قلم « الكوبيا » من وراء أذنه ويفتح دفتراً مهترئاً فيه ارقام امامها كلمات ذات حروف مترنحة ويغمغم :

- لا يجمع بينهم سوى الهزائم والملل والشيخوخة . إنهم أشبه بتلك الدفاتر الضخمة التي يسمون الواحد منها « البوم صور » . يجترون ذكريات أكل عليها الزمن ولم يشرب بما فيه الكفاية . تصور . . ان جميع هؤلاء الجنرالات هُزموا في معاركهم البطولية .

ثمّ يحتسي فتحي رشفة من كأس السفن ـ اب الذي يحبّبه بعناية تحت طاولته بعيداً عن عيون الزبائن . ويقول ان اعمار المحاربين القدماء هؤلاء متفاوتة ، وان الاستاذ عبد الرحيم الامين اصغرهم سناً . اما الشيخ الأصم فهو من جيل توت عنخ امون . لقد كان يعيش في عمان حين كان اسمها « ربة عمون » . ويطلق ضحكة حشاش اصيل . ثم يكشر فجأة ويتطلع الى الارقام وهو يقرب الدفتر من عينيه ويقول :

- أينعم يا سيد منقذ . . ثلاثة جرائد ، وكيلو قهوة . . وماذا أيضاً ؟ .

ويسجل في دفتره السلع والاسعار . . على الحساب . ويخرج منقذ من الدكان لاعناً فتحي في سره . إنه يسخر من أبطال تاريخيين نسي التاريخ ان يسجل اسماءهم في صفحة الشرف . لأن تاريخ بلدنا لا يملك دفتراً مثل دفتر البقال فتحي . « بلدنا بلا ذاكرة » كان يردد الاستاذ عبد الرحيم الامين . حتى اننا نفتقر الى وثائق تسجل وقائع ما جرى في الخمسينات تصوروا ؟

وينتظر الجميع منقذ في صبر وتجلد . فما ان يطل حاملاً الصحف حتى يهتف الاصم :

- اقرأ لنا صفحة الوفيات .

فيرمقه منقذ بنظرة لا تخلو من امتعاض . اذ انه لم يلتقط انفاسه بعد . وبسبب من غرام منقذ في المشاكسة والتأكيد على أهميته واستقلال قراره ، يفتح الصحيفة بأناة فيها تلكؤ مقصود . ثم يقرأ باب : « حظك اليوم » . فترتفع اصوات الاحتجاج . ثم يبدأ المحارب الميسلوني في استمالته بالحسنى ، فيثني على جهوده قائلاً :

- والله لولا منقذ . . . الله يرضى عليه . . لما نامت العجوز حتى الصباح . كانت تعاني من مغص . واولادي كما تعرفون ثلاثة . واحد في كندا والآخر في السعودية والثالث في الصويفية . فهاتفت منقذ . ومَنْ لي غير منقذ . ولم يقصر كعهده دائماً . هب الى الصيدلي واحضر الدواء . . الله يرضى عليه .

وما يزال هذا يكلمه وذاك يداعبه وثالث يثني عليه حتى يأنس منقذ اليهم ، وتقع كلماتهم من نفسه موقع التيه والاعجاب . فيفتح الصحيفة على صفحة الوفيات . فتنطلق الوجوه بعد عبوس ، ويظل قلق توقع المفاجآت في العيون . ويأخذ القلوب الواهنة وجيب لا تكاد تطيقه .

يقف منقذ أمام المحاربين القدامى ، يتأمل صفحة الوفيات بصمت وهو يتمتع بذلك الاحساس الخفي بأن الانظار الكل شاخصة اليه . يتخذ هيئة الاستعداد والتأهب ، فيتحول الجميع الى آذان صاغية . يفتح فمه فينحني الجميع نحوه ، وبغتة ، دون مقدمات أو مبرر معقول يرفع منقذ ذراعه ويهتف بحركة مسرحية :

- أهلاً بشيخ الشباب . . وحبيب الشعب . . بطل ميسلون . . « أبو محمد باشا » .

يتخاذل الجميع في مقاعدهم ، وينكمشون يائسين ممتعضين . ويصرخ أبو محمد باشا خارجاً عن طوره :

- بلا حبيب الشعب بلا بطيخ . كنت حبيب الشعب لما كانت عمان عمان . فكنا من أفلامك . اقرأ صفحة الوفيات وخلصنا .

ويسأله منقذ باهتمام شديد ودهشة اصيلة :

- ماذا تقصد بـ « لما كانت عمان . . عمان » . ليش الآن صارت عمان معان مثلاً ؟

* * *

- ٣ -

خرج منقذ من سطوة النهار الساطع ودخل الى مساء البيت الشحيح الكئيب . البيت قديم والمساء الرمادي الشاحب يبزغ فيه منذ الفجر ، لأن النوافذ عتيقة وضيقة . وفي الخارج ، في حديقة بيت الجيران تستحم سعاد في شعشعة الشمس . كان يحمل بطيخة ، ويلبس قميصاً ذا كمين قصيرين ، يُبرز عضلاته المفتولة .

وبزغ وجه سعاد وقالت :

- صباح الخير .

سألها ان كانت ترى . تساءلت بدهشة :

- البطيخة ؟

قطب قائلاً على استحياء :

- عضلاتي .

فقالت انها تراه كل يوم وهو يرفع الحديد والاثقال ويتدرب . واكد هو لنفسه دون صوت أنه ينبغي حماية نفسه ، أن ينقذها ، يحافظ عليها ، كي يُنقذ البشرية . ويعصف به فرح غامر فتسري رعدة في أعضائه . سعاد تهتم به اذن . تتسقط اخباره . تراقبه ، تسأل ، قال في نفسه «حبنا مستتر لأنه نبيل» . ودلف الى البيت حاملاً البطيخة وناولها « لآريا » ، وسألها عن ابيه ، فقلبت شفتها السفلى بوقاحة وقالت :

- يعني اين سيذهب ؟

رآه يجلس في صدر الصالة على مقعده المتحرك . . الى جانب الهاتف . انه ينتظر رنين الهاتف . يتوقع صوت صديق او أخ او رفيق قديم يستجير به للمساهمة في الحملة الانتخابية ، ودعم المرشح ، الفلاني أو العلاني . وهو جاهز لدعم أي مرشح يتمتع بتاريخ حافل ومواقف مشرفة وشعارات منحازة للانسان والحياة . انها أيام مجيدة . ايام الانتخابات . اليافطات في الشوارع ، الملصقات وصور المرشحين على واجهات المحلات ، مثل ايام العيد . وفتحي البقال وضع صورة مرشح من ابناء بلدته الأصلية ، وقال :

- صحيح ان هذا المرشح سينزل في الدائرة الاولى . . وصحيح اننا في الدائرة الثالثة ، لكنه يبقى نسيبي ، وعلي أن أدعمه . ومَنْ قال ان ابناء الدائرة الاولى لا يمرون من هنا ؟

لم يقل احد ذلك . لكن فتحي يسأل نفسه ويتوقع الجواب من الزبائن . ولم يرن الهاتف كالعادة . الانتخابات تشبه أيام العيد . الملصقات والاشياء الملونة والصخب . لكن الناس يزورون الختيار في العيد . والهاتف يرن . لكنه لا يرن الآن . والختيار يجلس الى جانبه ينتظر بقلق . قال :

- لم يتصل احد . يبدو انهم شطبوني من ذاكرتهم . نسوا انني خطيب ساحر البيان . نسوا أيام كانت كلماتي تهيمن على قلوب الآلاف . نسوا انني اسقطت المعاهدات والاحلاف بخطابات زلزلت البلد .

ويضرب العصا بالارض بقوة ويهتف وقد احتقن وجهه :

- والله . . ان لم يستعينوا بي لدعم مرشحيهم . . فإنهم سيسقطون . لكنني تبخرت من ذاكرتهم . .

ويدور حول نفسه بالمقعد المتحرك . صحيح انني مقعد ، غير انهم يستطيعون ان يجروني الى المهرجان . يدفعون مقعدي الى سيارة كبيرة ، ونتوجه الى المهرجان ، ثم ينزلوني ، ويدفعوني الى خشبة المسرح . فألقي خطابي

النـاري . أو اذا لم تخطر هـذه الفكرة ببـالهم ، فلماذا لا يـطالبونني بتسجيـل خطاب ملتهب ضد الامبريالية على شريط آلة التسجيل ، فيبثوه للجمـاهير في المهرجان الخطابي . . في غيابي . لكن البعيد عن العين بعيد عن القلب .

ويدور في مقعده حول نفسه كأنما في دائرة مفرغـة ، دون أن يبتعد عن الهاتف . وعينه لا ترتفع عن السماعة . وأذنه تتوقع الرنـين المنتظر بـين لحظة واخرى . لكن صمت هذا البيت ازلي . منـذ تـوفيت أم منقـذ رحمهـا الله ، والصمت لا يقطعه السيف المسلول ، ولا لسان ضيف سليط .

سدد الاستاذ عبد الرحيم الامين عينيه نحو منقذ وقال بلهجة لا تخلو من اتهام وتقريع :

- هل تدري انك وضعت في قدمي اليمنى جـارباً بنيـاً ، وفي اليسرى جـارباً رمادياً ؟ هل تعاني من عمى ألوان ؟ آريا اكتشفت الفضيحة . انا لم انتبه . مـاذا لو زارني زائـر ، ورآني . . جارب رمـادي وآخر بني ؟؟ سيقـول انني خرف .

كان منتفخ الأوداج محتقن الوجه . يلوح بذراعه السليمة ويشتم الادوية والطبيب والجلطة و« آريا » وسيرلانكا وندرة وفاء الناس . انتفض منقذ وحسم امره فقال ان والده يتفشش فيه لأن الهاتف لم يرن . وشعـر الوالـد بالاعتـزاز بذكاء ابنه المتهم بالبطء العقـلي . قال لنفسـه ان الولـد يربط بـين المقدمـات والنتائج ، العلة والمعلول . « قال يعاني من اعاقة خفيفة قال . أنتم المعاقون يا أبناء . . »

ويندفع منقذ نحو والده بخطى ثابتة واثقة تشي بأنه اتخذ قراراً خطيراً لا تـراجع عنـه . ويدور حـول المقعد ، فيـدفعه . . يخـرجه من البيت المسـائي الشاحب الى الحديقة المزهرة بالضياء . ثم يدفـع المقعد الى الشـارع . يصرخ الاب في هلع :

- الى أين ايها المجنون ؟

لكن منقذ لا ينبس . وانما يدفع المقعد المتحرك حتى يصل الى « الدوار

الأول » يقف على القمة . وابوه يتلفت حوله في خجل وارتباك يحيي هذا ويهز رأسه لذاك ويغمغم من بين اسنانه :

ـ اعدني الى البيت يا ابن الـ . . .

لكن منقذ يرغب في انقاذ ابيه من مزاجه الكئيب . يريد ان يلعب معه . يربط الحزام حول خاصرته جيداً . والأب يهمس مرتبكاً مضطرباً يشيح عن العيون الفضولية :

ـ ماذا تفعل يا ابن الـ . . .

ويدفع منقذ المقعد نحو قمة نزلة الدوار الأول التي تنحدر بقوة الى « البلد » بعد ان تمر بمبنى امانة عمان الكبرى ووكالة التوزيع الأردنية ويركض مندفعاً وهو يصيح :

ـ تمسك جيداً يا ابي .

والأب يصيح :

ـ مجنون . فضيحة . كان ينبغي ان أضعك في مستشفى المجيص .

وشعر منقذ يتطاير في الفضاء وهو يركض لاهثاً ممسكاً بمقبض المقعد الخلفي بحرص وقوة . والمقعد ينزلق على المنحدر باندفاع سريع ، والريح تتلقف وجه الختيار ، والمارة ينظرون الى الشيخ وهو يصيح فيحسبونه يهتف بهجة وفرحاً ، فيرفعون حواجبهم في ذهول . والجاذبية تتكفل بجر العربة ، ومنقذ يشدها الى الخلف كي لا يفقد السيطرة على سرعتها . ووجيب قلب الشيخ يزلزل الجبل ، والهواء يعبث بشعر الشيخ والعيون تتطاير الى المشهد العجيب . والجبال تختلط بالابنية بالمارة بالرياح العاصفة والارض تدور بالاستاذ عبد الرحيم دورة صاروخ حول كوكب فضائي . والشيخ يحس أنه سيطير ويحلق في الفضاء . فيقرصه احساس بالفرح ، يليه احساس بالسخط على منقذ الابله ، يليه احساس بأنه لن يخرج من هذه المغامرة المجنونة سليماً معافى . ويكاد يستجير بالناس . لكن الحياء وعزة النفس يمنعانه وسرعة اندفاع المقعد لا تتيح له تنظيم افكاره ، حيث اختلط الحابل بالنابل وامتزجت صور

ذكريات واجزاء صور سريعة مما يحيط به في باله الذي تحول الى مخزن ضربه زلزال مباغت فتناثرت محتوياته وتداخلت بفوضى مدمرة . المقعد بكل قوته عند الاشارة الضوئية في اسفل الشارع المنحدر ، حيث يلتقي بشارع « الامير محمد » فتوقف المقعد لكن قلب الشيخ الدائخ لم يتوقف عن الاختلاج بعنف . قال منقذ وهو يجفف عرقه بباطن يده :

- النزلة . . ونزلناها بسهولة . ولكن الطلعة الى الدوار الأول كيف سندبرها ؟

التقط انفاسه ، ولم يلتفت الى وجه والده الشاحب ونظرة الرعب المشعة في عينيه . كان الأب يجهد في التقاط انفاسه وهو يغمغم بصوت غير مسموع :

- انني احتضر . لن اصل الدوار الأول إلا وقد قتلني هذا الدوار الذي يضج في رأسي .

شمر منقذ عن ذراعيه المفتولتين . وأدار المقعد باتجاه الطلعة المفضية الى الدوار الأول . وقال وهو يدفع العربة بجهد وقوة :

- كيف تشعر الآن ؟ وتظل تشكو من انني لا أشممك الهواء ، وأتركك حبيس البيت طوال الوقت !؟

لعنه ابوه في سره . ولما اطمأن الى انه بات يعتلي بمقعده قمة الطلعة ، وشاهد الدوار الاول بأشجاره الخضراء الغبراء . تنفس الصعداء . وكركر في عبه ضاحكاً منتشياً قد أثارته المغامرة المجنونة . لكنه لم يستطع إلا ان يلعن منقذ ، ويزجره ، ويحذر من اعادة هذه المغامرة الخطرة كرة اخرى . قال :

- تريد ان تفضحنا بين أهل جبل عمان ؟ تريد ان يقول اهل عمان . . ان الاستاذ عبد الرحيم يتزلج على الجبل بمقعده المتحرك . . ويلعب كالأطفال ؟ تريد أن يتوقف قلبي عن الوجيب هلعاً ؟

عادا الى البيت . ما ان وقع بصر الاستاذ على «آريا» السيرلانكية حتى سألها إن كان الهاتف قد رن ، فنترت رأسها سلباً . أظلم وجهه واتصل برفيق قديم وقال له وهو يأمل ان يطالبه هذا بالمساهمة في الحملة الانتخابية انه انما أراد ان يطمئن على صحته فقط . فقال صوت الآخر انه مقصر في حقه ، وانه

سيزوره يوم الجمعة صباحاً . واعتذر عن تقصيره قائلاً ان الجميع غارقون في الحملة الانتخابية . قال :

- والله يا استاذ . . صدقني . . انني لا اكاد أرى زوجتي واولادي . طوال النهار داير مع مرشحينا من مكان إلى اخر .

اعاد الاستاذ الشيخ السماعة الى مكانها بعصبية وغمغم :

- سبحان المغير الذي لا يتغير . هل نسوا دوري الخطير الحاسم في انتخابات الخمسينات ؟

* * *

- ٤ -

طرأ منقذ على هذا العالم عام . . . لا يذكر أي عام على وجه الدقة . والحق انه لم يطرأ على هذا العالم ، ذلك ان ظهوره وانبثاقه كانا أمرين حتميين ، تقتضيهما الضرورة التاريخية المحكومة بقوانين الاقدار الصارمة لا الصدفة . والا لماذا سماه الختيار « منقذ » ؟ . . . هكذا يفكر منقذ . يقول في نفسه :

أتكلف المرض والفصام لتمويه عبقريتي . لأواري قدراتي الكامنة التي ستزهر في اللحظة الحرجة البهية المزلزلة . تلك اللحظة المختفية في رحم المستقبل المقبل بسرعة ضارية مثل طائرة الجمبو - جيت . لقد ركبت طائرة الجمبو - جيت برفقة طبيب صديق لوالدي . وانطلقنا الى نيويورك الكفيفة حيث المهرجانات اليومية العادية الهاذية ، والبنايات المشحونة بالذئاب البشرية الهائمة . واختلف أطباء نيويورك في أمري ، مثلما اشتجرت آراء الاطباء الاردنيين في تشخيص مرضي المبجل . وكنت طوال الوقت أضحك في عبي ، وأكركر في صمت ، دون ان أفشي سري المرصع بالغموض الجليل ، ودون ان اكشف عن رسالتي غير القابلة للمقايضة . فالكشف عنها قبل بزوغ اللحظة

المبجلة ، والدقيقة الحاضنة ، سوف يوردني مورد المهالك ، ويجعلني رهينة المكائد .

أحد الاطباء ، وكان أصلع الرأس صقيله ، قال انني ظاهرة مدهشة فريدة ، يقف لها شعر الرأس ذهولاً . لكن شعر رأسه هو لن يقف ذهولاً لانه اصلع . قال لطبيبي الاردني ، بعد ان فحصني بدقة ، وسألني اسئلة اجبت عنها بلغة انكليزية بينة بليغة مستشهداً بين الحين والآخر ، بمقطع لشكسبير ، أو مؤكداً وجهة نظري بقصيدة كاملة « لديلان توماس » أو « والت ويتمان » ، انني عبقري غير سوي . أعاني من فصام غريب فريد لا عهد له به . ورنوت الى رأسه الصقيل فلم أر شعرة تقف وتنتصب . ليته كان ذا شعر غزير . ما اجمل الشعر حين ينتصب دهشة . أنا لم أر رجلاً ينتصب شعره هولاً في حياتي . لكن عينيه كانتا جاحظتين ، وخفت لوهلة ان تندلقا من محجريهما فيتبعثر كل ما فيهما من صور مختزنة على أرض العيادة النظيفة الباهرة . لا بد انه سافر كثيراً ، وأقام علاقات لا تعد ولا تحصى . وتناسيت وجود الطبيبين ، اذ راقت لي الخاطرة ، ورأيت العينين تندلقان من المحجرين ، فتتناثر الصور المختزنة فيهما . رأيت تمثال الحرية يتهاوى على الارض ويتحول الى حطام ، ورأيت ساق امرأة زنجية ، ومقعده المفضل في الحانة التي أدمن التردد عليها . . يتداعى على الارض الصلبة دون جلبة . . آلاف الاشياء والوجوه والاماكن والصفحات والاوراق والاقراص . . تندلق مع العينين المسحوقتين على الارض . وانتزعني صوته من هول المذبحة الصاخبة لذاكرة فقدت عينيها ، سألني وهو يهز منكبيه :

- هل تحفظ كل ما تقرأ ؟

قلت دون تردد :

- عن ظهر قلب ، ومن المرة الأولى . أحفظ القرآن الكريم ، وشكسبير ، والمعلقات و . . . لا أقول اني أفهم كل ما أقرأ . لم أقل ذلك . قلت احفظ . أ . . ح . . ف . . ظ . .

وسألني مقاطعاً وهو يقطب ما بين عينيه :

- ما هي علاقتك بالرياضيات ؟

قلت وأنا أهز رأسي أسى :

- بغيضة . لست على علاقة ايجابية بالقوانين والقواعد المتفق عليها .

تدخل الطبيب الاردني ليثبت وجوده ويؤكد رجولته فسألني :

- أنت لا تفهم العلاقة بين العلة والمعلول . . أليس كذلك ؟

فتحت فمي لأقول . غير اني لم انبس . خفت ان ينكشف سري . هذا الطبيب هو العليل والمعلول . أما انا فأتكلف العلة تكلفاً ، كي أجلل سري المبجل ، ودوري التاريخي الخالد .

* * *

سماء نيويورك ملبدة بالغيوم القاتمة ، اذن فإن النساء سوف يتحررن من ضوء النهار الفاضح ، فتطارد رغباتهن عارية بلا حياء أو تردد . قال صديق أبي (الطبيب الذي رافقني من عمان) ان السماء ملبدة بالغيوم القاتمة . (كنت أعرف ذلك) وأضاف : اذن . . سوف تمطر .

ولم أسأله من التي سوف تمطر ؟ وما علاقة السماء بالغيوم بالمطر ؟ إذا كان يقصد ان السماء هي التي سوف تمطر ، فالسماء تمطر احياناً بلا غيوم . والغيوم تمطر احياناً بلا سماء . . في الليل الحالك بالتحديد . . حيث لا سماء ، ولا تحت ولا فوق .

قال الطبيب الثاني انني متخلف عقلياً وقد توقف نمو عقلي ما بين مطلع المراهقة . . . وكبوة ما قبل سن الرشد . وهذا يعني انني حجر . انني جماد لا ينمو . ولست نهراً دافقاً . لكن الطبيب اياه غير رأيه حين فحصني مرة ثانية . وقال انني لا أعاني من أي مرض . وانني ابدو أبله ولكنني لست كذلك .

الارض تحتي ليست راسخة . والعالم ليس منتظماً . انني منشق عن المجتمع . لانني ينبغي ان اتخلص من جاذبية التقاليد كي احلق واتجاوز

واتخطى . . وأنجز الحلم المبجل . وقال الطبيب الثاني انني أقف على الشعرة التي تفصل بين العبقرية والجنون .

* * *

قلت لمرافقي ان اطباء نيويورك يكررون ما قاله اطباء عمان . وانني لا احب الهمبرغر ذا الطبقات المتراصة ، وبناء على ذلك ، فإنني احب ان اعود الى عمان . حيث ابي وسعاد والخادمة آريا ، والبيوت التي تتسلق الجبال ، تتعربشها مثل قطيع من الماعز . تومىء من فوق التلال ، وكأنها تتأهب للقفز الى قعر الوادي . . انتحاراً . لكنها لا تقفز . بيوت اتخذت هيئة من يهم بالقفز ، ثم تسمرت وتجمدت وثبتت في تلك البرهة الزمنية ، التي تفصل بين عشق الحياة ، والرغبة الضارية في الموت .

* * *

- ٥ -

ما كنت أعرف « الجن » ولا حليب السباع . ما كنت اعرف ان « الجن » يتخذون شكل الشراب . أمي ، رحمها الله ، كانت تقول لي ان « الجن » يتقمصون شكل انسان احياناً ، أو شكل طيف يأتي في العتمة ويعبث بعقول الناس . غير اني لم اسمع ان « الجن » يتخذون شكل الشراب الا حين سألت جارنا فتحي البقال الأصلع عن الكأس التي يشربها . أبي طلب من « آريا » الخادمة السيرلانكية ان تذهب الى البقال وتجلب له بطاريات للمذياع . وأنا اعترضت بشدة . قلت ان هذا شغلي انا . « آريا » تنظف البيت وتغسل وتعد الطعام . أما ان تنزل الى الشارع في الليل وتذهب الى البقال . فألف لا . لأن اولاد الحارة قد يصفرون لها ، ويتحرشون بها . ثم انني المسؤول هنا . مسؤول عن ابي المشلول وعن كل صغيرة وكبيرة ، وهذه المهمة تدخل في صلب عملي وواجبي . وأبي قال بعصبية انه يريد البطاريات . . هذا هو المهم . أما من يحضرها ، فهذا امر غير مهم . فضربت قدمي بالارض وقلت ان الامر في غاية الأهمية بالنسبة لي . أريد ان افهم من هو صاحب السلطة في هذا البيت انا أم

« آريا » ؟ وأطلق أبي ضحكة مباغتة جعلتني انتفض . وقال انني خفيف دم . ومد عصاه بيده السليمة وربت على كتفي . وأنا هبطت الى البقال ورأيته يحتسي كأساً فيها ما يشبه السفن ـ أب وقطعة ليمون . وسألته فقال هذا جن . وحسبت أنه يسخر مني كما يفعل بعض الناس . وقلت ان الجن جنس متميز عن البشر والملائكة والشياطين والشراب ايضاً . فقال وهو يدفع الكأس نحوي :

ـ خذ لك رشفة .

تقدمت من الكأس متردداً متوجساً ، ثم رشفت رشفة سريعة ، فأعجبني مذاقه ورحت اتلمظ . سألني بلسان ثقيل وكلمات ذات أحرف متمايلة :

ـ أعجبك مذاقه ؟

فحدقت الى الكأس ولم أر اثراً لجني فيه . سألني البقال عن سبب مجيئي . فاكتشفت انني نسيت . قلت ان أبي ارسلني لاشتري شيئاً . . ولكني نسيت . كانت عينا البقال تتوهجان بلهب مثل الدم . كركر ضاحكاً في عبه ، وقال :

ـ تعال يا شيخ ، اجلس هنا حتى تتذكر .

وقال انه يشعر بالوحدة ، ويريد أن يثرثر ، وكان الشارع مقفراً والليل مكتنزاً بالأسرار الغامضة المرعبة . ودفع بيده مقعداً خشبياً فجلست . سألني ان كنت أرغب في كأس مثل كأسه . لم اصدق حكاية الجن وقلت له ان طعمه يشبه السفن ـ اب وانه لذيذ وانني احب السفن ـ اب . قام وهو يتمايل واختفى في غرفة صغيرة داخل البقالة ، ثم عاد ومعه الكأس . ناولني اياها وقال ان سعره مرتفع . لكنه قرر الليلة ان يطبش الجرة ، وانه عادة يشرب حليب السباع . وان زوجته طلقته لأنه يشرب حليب السباع . قال :

ـ ما كانت تطيق رائحته . هل تحب رائحته انت ؟

وتناولت الكأس وأتيت على ما فيها بجرعة واحدة ، كنت أشعر بالظمأ . انني أشعر بجفاف في الحلق كلما حكى شخص كلاماً صعباً . لم أفهم ما هو حليب السباع . وسألته إن كانت السباع تُحلب . فكركر ضاحكاً وكان الهواء مختفياً والحارة مقفرة والمدينة مزدحمة بالظلمات . والليل رائحة الصمت . وامتلأ جوفي بنار دغدغت أعضائي فارتعشت رعشة لاذعة . وسمعتني اقول انني ارغب في كأس اخرى . ولم أتذكر ما الذي كنت احاول ان اتذكره . وقال البقال ان ابي سوف يزعل . وان « الجن » غالٍ . وهززت منكبي وقلبت شفتي السفلى وقلت له انني سأجلب له بذلة انيقة من خزانة ابي . وان ابي لن يلاحظ لأنه يظل معظم الوقت بمنامته التي يضع فوقها عباءة . أعني التي أضع انا فوقها عباءة . فأنا مسؤول عن ابي . وقلت انه نائم الآن . وأبرقت عينا البقال واختفى ثم عاد بكأس اخرى . وأتيت عليها بجرعة واحدة . وقال البقال منبهاً :

- على مهلك . . هذا الجن غدار .

قال انه يحب ان يكون مثلي لا هم ولا غم ولا بلاء . قلت انني سعيد . وعرض علي سيجارة ، فرفضتها بحدة ، وقلت ان أبي قال ان الاولاد الذين يدخنون زعران . وأرسل البقال ضحكة صفعت اذني . وقال انني لست ولداً . قال :

- أنت رجل ناضج كبير . . ولكن عقلك صغير الى حد ما عدم المؤاخذة .

وكرر أنه يتمنى ان يكون مثلي : لا هم ولا غم ولا تفكير ولا زواج ولا طلاق ولا ديون . كان يتصرف بطريقة غير طبيعية ، كأنه مريض . لسانه ثقيل ويقول كلاماً لا أفهمه . وقلت بحرد ان عقلي ليس صغيراً ، وان أبي يقول انني ذكي جداً . فاعتذر قائلاً دون اهتمام :

- زلة لسان يا أخي نعمان . . متأسف .

ولكن اللسان لا يزل القدم تزل . ويتهاوى المرء . . وبدأت أحس بأنني خفيف مثل ريشة تتهاوى في الفضاء . وقلت انني سأعود الى البيت . وطلبت

زجاجة من هذا الذي يسميه فتحي البقال « جن » . فتردد وفكر ملياً ، ثم قال :

ـ هل تعدني بأن تحضر لي بذلة انيقة من بذلات أبيك ؟

أومأت بالايجاب . واحضر زجاجة وقال انها « نصية » . وفهمت انها نصف زجاجة وكان لون الشراب مثل لون الماء أو السفن ـ اب ، ورائحتها حلوة مثل رائحة سعاد ابنة الجيران التي تفوح بعطر لا اعرف اسمه . انها تستحم كل يوم بشعشعة الشمس ، لعل هذا العطر هو عطر رائحة الشمس حين تمس اشعتها جسد سعاد وتختلط به . ولأنها تستحم يومياً بشعشعة الشمس . . فقد اصبح لون بشرتها برونزياً !

فتحي البقال الخبيث مال نحوي وأشار علي أن أواري النصية في جيب سترتي الداخلي . وبصعوبة دسستها في الجيب وعدت الى البيت ، وعثرت على نفسي أطلق صفيراً مرحاً . وكان أبي يجلس امام التلفزيون في الصالة ويضع الهاتف الأبكم على حجره . قال بلهجة لا تخلو من غيظ :

ـ يبدو انك مبسوط . هل أحضرت البطاريات ؟

وهالني أن أنسى البطاريات . نعم بطاريات . وقلت انني وجدت البقالة مغلقة . فحدق أبي الى ساعته وبرم شفته السفلى علامة التعجب . وقلت له ان البقال قال ان عقلي صغير . وانهم يقولون انني عبقري لانني احفظ كلّ ما اتلقنه بسرعة خارقة . . ولكن المشكلة تكمن في انني لا افهم ما أحفظ . هكذا قال البقال . انطلق شرر من عيني الشيخ ، وقطب ثم قال انني ذكي جداً ، ولكنني غريب الاطوار الى حد ما . وقال ان معظم المبدعين يعانون من غرابة اطوارهم . وقلت انا في نفسي « ربما خلقني الله بطيئاً كما قال البقال . . لأن العجلة من الشيطان . وهذا يعني ان الله يحبني » . سألني أبي بريبة :

ـ كيف قال البقال لك كل هذا وانت تقول ان الدكان مغلق ؟

سعيت الى المطبخ ، وقد ارتج علي وفتحت فمي لأقول فلم أجد ما أقوله . وهممت بالدخول الى المطبخ فإذا بصوت الماء ينهمر من « دوش » الحمام

يتناهى الى مسمعي . وكانت « آريا » تغني اغنية لا أفهمها . تناولت كأساً من خزانة المطبخ وصببت من « النصية » . بحثت عن قطعة ليمون فلم أعثر على واحدة . دنوت من الحمام لأسأل آريا من وراء الباب عن مكان الليمون . وآريا تتحدث بالعربية على طريقتها ، غير انني أفهمها . . ثم انها تحكي الانكليزية ايضاً . واحتسيت جرعة كبيرة من الكأس ومضيت الى الحمام ، وداخلني شعور غريب لذيذ بأن الحياة حلوة ، وبأنني خفيف وبوسعي ان أطير . ووقفت امام باب الحمام . ثم عثرت على نفسي انحني وأحدق من ثقب مزلاج باب الحمام ، ولم أر شيئاً ، لأن حوض الحمام يقع الى يسار الباب . ثم رأيت المرحاض . ورحت اغني : « الحياة حلوة بس نفهمها » . . الله يرحمك يا فريد ! وأحسست بشغف هائل نحو فريد الاطرش . . الذي كنت أبغضه لأنني أبكي كلما سمعته ، فهو حزين ، وأنا لا احب ان يحزن الناس . وناداني ابي فلم اسمعه ، لأن صوته بلغ مسامعي دون حروف . أشبه ما يكون بسعال او غمغمة . وقلت لعله يكلم نفسه . وعدت الى المطبخ وأنا ارقص ، وأفرد ذراعي وأدور حول نفسي ، وراح المطبخ يدور معي ، ودار رأسي مع المطبخ . ودارت الجدران وكنت منتشياً . وصحت :

- انني أحب الحياة .

وحين احتسيت كأساً اخرى . دهمتني قشعريرة هزتني هزاً ، وناديت أمي ، وأحسست بالخوف ، وتذكرت ان امي توفيت . فناديت اختي نادية ، فرد ابي . جاء صوته زاعقاً ولم يأت هو . قال ان اختي هاجرت الى أمريكا منذ خمس سنين . وقال بلهجة آمرة زاجرة :

- تعال .

وسعيت نحوه . وتداعيت على اريكة ، ثم اخذت وجهي بين يدي . وعثرت على نفسي انتحب . وأبي لا يفهم لماذا انتحب ، ويسألني . وانا لا افهم لماذا انتحب ، واسأل نفسي . ثم نادى أبي « آريا . وأقبلت آريا ؛ وشعرها يقطر ماء . لم أشاهدها . كنت اجلل وجهي ودموعي بيدي ولكنني خمنت انني شممت رائحتها . وقال ابي لآريا :

- اعطيه المهدىء .

وربتت آريا على كتفي ، وتنشقت رائحتها التي تشبه الفلفل . ثم وضعت اصابعها على يدي . فاستسلمت يدي لاصابعها . وأمسكت بيدي وقالت :

- تعال يا حبيبي .

وقمت ، ودارت الدار ، فأحسست انني على وشك السقوط . فساندتني ، وتبعتها كالسائر في منامه ، وكنت انتحب وانادي امي واختي ولا أعرف لماذا انتحب . وناولتني آريا القرص . وحدقت اليّ بعينين مستريبتين . ثم قالت :

- تعال الى السرير . . لتنام .

قالتها بالعربي والانكليزي . وأنا فهمت ماذا قالت ، غير اني لم افهم لماذا انتحب . ولماذا لا أستطيع ان اتوقف عن النحيب . وذهبت الى المطبخ لتحضر لي كأساً من الماء . فرأت « النصية » ، وصاحت . وكنت مندساً في السرير . وهرعت الى ابي . ووشت بي . وأنا لم اعرف كل هذا إلا من البقال في اليوم التالي . فقد اتصل ابي بالبقال في الصباح وصاح في وجه سماعة الهاتف ، وزعق ، وقلت انه بلا شك غاضب من البقال . ثم سمعته يقول :

- اياك ان تبيعه السم الهاري هذا . ألا تكفينا مصيبتنا معه حتى تبيعه جن ؟

وأدركت من فوري ان البقال لم يكذب . وانني شربت ليلة امس عصارة من عصارات الجن . فعبثت بحواسي وعقلي وشوشتني . وان الجن خدعوني ، اذ جعلوني سعيداً منتشياً في البداية ، ثم جروني الى فخ البكاء . وكان رأسي يضج بأصوات الجن وصخبهم . وجاءت سعاد وضمت رأسي الى صدرها ، فتنشقت رائحة شعشعة الشمس الوضيئة :

- هذا البقال كلب . . آه . . ماي بيبي . . ماي بور بيبي .

وسمعت صوتي يقول بصوت لا يسمعه احد غيري :

- ليت سعاد تسكن معنا بدلاً من هذه « العبدة » آريا ذات الرائحة الكريهة . وكانت عينا سعاد تشبه رائحة الجن والليمون . ثم مضت ، فجعل الجن يرقصون في رأسي ويصخبون . وعادت وهي تدفع ابي القابع على المقعد المتحرك . وقلت لابي انني اريد ان تسكن سعاد معنا . . بدلاً من آريا . لأن آريا عبدة سوداء وبشعة ، وأنا احب سعاد ، فصرخ ابي في وجهي :

- لا تكرر هذه الكلمة مرة اخرى .

ولم افهم اي كلمة يعني . ولما سألته قال :

- عبدة سوداء . . . لا تكررها . انها حرة اكثر مني ومنك . نحن مع حرية البشر .

وأنا لم افهم . يبدو انه بدأ يحكي سياسة كالعادة . وربتت سعاد على كتفه ليحل عني . ثم دفعت مقعده الى الشرفة ، وعادت الي وضمتني الى صدرها . وكان شعرها اشقر مثل الربيع ، وعيناها زرقاوين مثل لون الخاتم الذي كانت تضعه امي في اصبع من اصابعها . ولاحظت ان بسمتها مشرقة مثل الغروب ، ورائحتها جديدة طازجة مثل سيارة يركبها من اشتراها للمرة الأولى . آه . . للأشياء الجديدة رائحة مباغتة .

وتناهى الي صوت ابي وهو يزعق في وجه الواجهة الزجاجية للشرفة .

- بددت عمري ، وأنا اناضل ضد الاستعمار . فإذا ابنتي تصبح امريكية ، والولد عنصرياً فاشياً يسمي الافارقة والسمر عبيداً .

ولم افهم ماذا يعني بالتحديد . غير انني احسست بالذنب . وهممت ان انهض من الفراش واسعى اليه ، وأقبل يده اعتذاراً . لا بد انني اقترفت اثماً مروعاً . ونظرت الى سعاد نظرة مستطلعة ، وكدت استجير بها كي تشرح لي ما الذي يجري من حولي . لكنها غمزتني بعينها اليسرى مؤكدة حبنا السري الخالد . ولكن هذا ليس وقت تأكيد الحب . الحب يليق بأجواء باهرة . وها هو ابي يجلس غاضباً متوتراً ويقول انني فا . . فا . . شستين . وأنا لا افهم اللغة هذه . من وراء ظهر ابي قبلتني سعاد على جبيني وأشارت علي بتحمل

مزاج ابي الحاد . فأحسست ان قبلتها المختلسة قذفت النور في قلبي ، فاذا سحب الظلام تنجاب ، واذا نفسي تشرق وتملأ الدنيا بشرارة حب الحياة . وقلت لنفسي انني لست بطيئاً كما يقول فتحي الأحمق فأنا أسرع اولاد الحارة في الجري .

* * *

- ٦ -

قال أبي انه متوعك ، فدفعته الى غرفته ، وساندته بذراعي القوية واستند هو على عصاه ، فاندس في الفراش . غطيته ، ثم خرجت . وكانت آريا تقف في الشرفة الزجاجية ترنو الى الشارع الغارق في الظلمة ، والبيت غارق في بحر الصمت الرتيب كالملل . فتحت الباب بعد تردد ، فقالت آريا :

- وين ؟

هبطت الدرج وحين بلغت الشارع قلت « الى جهنم الحمراء » . ومشيت وقد قر قراري على القيام بمغامرة خطيرة . سعيت الى بقالة بعيدة نسبياً . دخلت متردداً أتشركل في خطواتي ، وغمغمت بصوت خفيض دون ان انظر الى عيني البائع انني أريد زجاجة حليب السباع .

رفع البقال حاجبيه دهشة ، وظهرت البغتة في وجهه ثم اشرق وجهه فجأة بعد ان أظلم وأطلق ضحكة هستيرية ، وكدت اطلق ساقي للريح ، لكن الريح والمارة اختفوا من الشارع . ثم دار من وراء مكتبه المغبر وقال وهو يبتسم :

- تقصد زجاجة عرق ؟

* أومأت والعرق يتصبب من جبيني . ثم سألته إن كان العرق هو حليب السباع . فأشار الى رف اصطفت عليه أنواع مختلفة من الزجاجات وسأل :

- غنطوس ؟ حداد ؟ توما ؟ كرمي ؟

ولم أفهم . فسألته :

- ما لهم ؟

أطلق ضحكته الهستيرية مرة اخرى وصفق بيديه وقال انني « صاحب كيف » . وقال :

- أي نوع . غنطوس ؟ حداد ؟ توما ؟ كرمي ؟

ففهمت ان حليب السباع مسألة معقدة . فهو يحمل اسماء وصفات عديدة . عرق وابو غنطوس وحداد وقلت وقلبي يخفق بشدة :

- كرمي .

وكنت قد لطشت عشرة دنانير من جيب ابي . فدفعت ولم أعرف سعر الزجاجة ، غير انني تكلفت المعرفة . وأعاد البقال الباقي وعدت انا الى البيت . ودلفت الى المطبخ . وسكبت حليب السباع في كأس ، لكنه ظل بلا لون . . مثل الماء يعني . مع ان ما يحتسيه جارنا البقال فتحي يشبه الحليب . وحككت دماغي ، وحاولت ان اتذكر . وداخلني شعور مريب بأن البقال غشني وضحك علي . ثم تذكرت ان فتحي البقال يخلط حليب السباع بالماء . فخلطته بالماء ، واحتسيت ، وكانت آريا نائمة وكنت أسمع شخيرها ، ومذاق حليب السباع كريه مثل شخيرها ، ورائحته غريبة . . واحبها . مثل حبي السري لسعاد ومثل رسالتي السرية لانقاذ العرب والبشرية . ولكن لماذا يزدحم العالم بالاسرار ؟ لماذا لا يتعرى فترى الاشياء ونفهمها بوضوح . البقال ابن الـ . . . فتحي ، يملأ فمه بالضحك ويقول ان سعاد تحبني مثلما تحب شقيقها . لكنها بلا شقيق . فكيف يمكن ان تحبني مثل اخيها وليس لها أخ اصلاً . وماذا لو عجزت عن القيام بمهمتي . . تخليص العالم والعرب وتحريرهم وانقاذهم ؟ وكيف سأفعل ذلك ؟ لعلني أعثر على رسالة تحت وسادتي كل صباح تتضمن التعليمات اللازمة . رسائل تدسها يد القدر تحت وسادتي . لعن الله هذه

الحال . كيف انقذ العرب والبشرية ، وأنا عجز عن انقاذ أبي من كآبته ؟ لماذا سماني منقذ ؟ لعلي لا استطيع القيام بالمهمة المبجلة .

جلست في الشرفة ، ورأيت عمان تشتعل بالكهرباء . واحسست حليب السباع مثل لهب يتقد في احشائي بقوة جبارة . والقوة الجبارة تحولت الى طاقة هائلة خرافية تنبض بعنف في قلبي . وأنا أرتشف وارتشف واشعر انني اقوى من ريتشارد قلب الاسد الذي حدثني عنه ابي . اعجبني اسمه . انا الآن منقذ قلب السبع . . بعد ان احتسيت حليب السباع . وفكرت ان هذا العرق ليس له رائحة العرق التي تفوح مني أو من آريا احياناً . وقلت انني لا أخاف العتمة ولا الشوارع ولا الناس ، لأنني منقذ قلب السبع . وشعرت برغبة في تحطيم شيء ما . أو في الهبوط الى الشارع والاعتداء على أي عابر ينظر نحوي نظرة مستطلعة . وبدا لي شخير آريا الهامس ساحراً . فدنوت من غرفتها . دفعت الباب بحركة رشيقة وحدقت اليها . كان ضوء الصالة ينعكس على سريرها . والارض تحتي تترنح وأنا اترنح مع أنني قبضت على طرف السرير . كان ثمة غطاء خفيف ينحسر عن ساقيها السوداوين . دنوت منها والارض تترنح تحتي ، غير انني تقدمت بثبات وجرأة المحارب المحترف والفارس المقدام . وقلبي يخفق بشدة وعنف ، والارض تحتي تترنح . مسست كتفها بيد مرتعشة ، كنت ارغب في ان اضع رأسي على صدرها وانتحب وأنام .

فتحت عينيها فجأة . أنا رأيت البرق وهو يومض في العينين الذاهلتين ، ولم اخف طبعاً ، غير ان ركبتي اصطكتا وشفتاي ارتعشتا لأن الارض غير ثابتة تحت قدمي . وقلت انها ستولول خوفاً وتستنجد بأبي وتلم الحارة وتفضحني . أنا المنقذ المتطهر بالاتون النبيل والنار الجليلة والسعير المبجل . وجدتني ارقد مذعوراً فزعاً ، فإذا بيدها تمتد بهدوء وثبات الى يدي . ومن خلل الضوء الشحيح رأيتني أنام الى جانبها ، مع انني واقف في مكاني . اذن من هذا الذي ينام الى جانبها ويخفي وجهه بالغطاء . قالت آريا انني احلم . وحسبت انني نمت الى جانبها وبدأت احلم . قالت هامسة انني اسير وأنا نائم ، وأرى ما يراه النائم من كوابيس واحلام . وانا صدقتها . قلت انني جئت لوضع رأسي على صدرها وانتحب بلا سبب وأنام .

طوقتني بذراعيها وقالت ان الخمر تدفع المرء احياناً الى البكاء أو العنف . فوافقتها وأيدت ما قالته بأن كشفت لها عن رغبتي في ضرب الجدار ، او تحطيم مرآة ، او الهبوط الى الشارع واختيار احد المارة (هكذا لا على اليقين) عشوائياً . . وضربه .

آريا دفعتني برفق الى غرفتي . سألتها إن كنت قد نمت الى جانبها . قلت انني رأيت نفسي انام الى جانبك . وضحكت ضحكة مقتضبة وقلت انني اعتقدت للوهلة الأولى ان شخصاً غريباً ينام الى جانبها . ولعنت الخمرة وجنها وشياطينها التي تعبث بعقل الواحد . وقالت وهي تأخذني الى فراشي ، انني كنت نائماً الى جانبها . وانني كنت احلم .

وقلت لآريا ان امي كانت تقبلني قبل النوم . وكانت تضج برائحة البحر . ولما قضت ، رحمها الله ، صارت اختي نادية تقبلني على جبيني قبل النوم . وانحدرت دموعي لسبب مجهول لم استطع ان أتبينه . وقلت ان البقال يقول ان سعاد تحبني مثل أخيها . ولكنه كاذب لأن سعاد بلا أخ . وقلت ان سعاد تقبلني في الصباح على جبيني . لكن نادية سافرت . ابتسمت آريا وقالت انها ستقبلني كل ليلة قبل ان أنام .

أحسست ان السقف يدور والارض تترنح وأصوات غريبة تتداخل . قلت انني ارغب في ان تقبلني سعاد قبلة قبل ان انام ، لأن سعاد فخمة مثل سيارة مرسيدس . قبلتني آريا على جبيني ، وقالت لي ان لا أشرب الخمر مرة اخرى . هززت رأسي . . فلم تره . وكنت وحيداً أسمع كل هذه الاصوات . وقلت لعل الصوت المنتظر يأتي الليلة ليقول لي كيف انقذ العرب والبشرية ، كي لا أخيب امل أبي الذي راهن على وسماني منقذ .

لقبلة آريا رائحة سيارة فولكسفاغن عتيقة مستعملة .

* * *

أرسل الباب انينه المعهود . الخطى الهامسة مست الارض . والأيدي تتلقف الاصابع تحت ضوء النواصة الشاحب . والاستاذ عبد الرحيم الامين منكمش في مرصده المستتر . عين مفتوحة على سعتها ، وأخرى مغمضة . اندفع الرجل الى الصالة وهو يترنح . دار ودارت معه الارض وما عليها . ثم اتكأ على منضدة حتى لا يقع ، فمالت المنضدة ، وسقط تمثال صيني يمثل امرأة ترتدي ثياباً عسكرية وتحمل مشعلاً . تشظت هدية « شو إن لاي » التي سلمها بنفسه الى الاستاذ عبد الرحيم الامين ايام العز والمد . الغضب العارم الذي عصف بالشيخ المقعد كاد ان يمده بطاقة خارقة تمكنه من أن يثور من سريره ، ويندفع نحو الرجل ويمزقه الى أشلاء . لكن قواه سرعان ما خذلته ، فتذكر انه مقعد . كيف ينسى المقعد لوهلة انه مقعد ؟ عَنَّ له ان يصيح صيحة اليائس ، لعل صيحته تبعث منقذ من نومه الثقيل . . فينقذ ما يمكن انقاذه من جنون هذه الجرافة البشرية المدمرة . لكنه غص بقهر خانق والخوف على مصير منقذ بين يدي هذا المجرم دفعه الى اطباق جفنيه على دمعة حارة . هدية « شو ان لاي » بطل الصين الثاني ورمز من رموز المد الانساني نحو الحرية . . يتهشم . كانت زوجته ام منقذ الى جانبه ، حين ناوله « شو ان لاي » التمثال الرمز . فانحدرت دموعها اعتزازاً بزوجها . وكانت اول من صفق حماسة ، فاستن الجمع بسنتها وراحوا يصفقون . بينما وضع « شو ان لاي » يده بيد الاستاذ عبد الرحيم الامين ورفعهما الى فضاء الصالة .

هتفت آريا بغضب :

- انت سكران .

لم يعبأ الرجل بكل ما فعله . اختفى في الظلام برهة ، ثم وقف بباب غرفة نوم الاستاذ عبد الرحيم الامين . بهت المحارب القديم ، واغمض عينيه متكلفاً النوم . اتكأ الرجل الغريب بكتفه على طرف الباب . خفت آريا اليه ، وجرته من ذراعه الى الخلف . همست :

- سكران .

أدار عينيه المتوهجتين في الغرفة المظلمة . ثم اندفع الى داخل الغرفة وقد تخلص من قبضة آريا بحركة عنيفة . تناول عود ثقاب ، أشعله ورفعه امام عينيه . اقشعر بدن المحارب القديم . وفكر بمنقذ مشفقاً خائفاً في آن معاً . لماذا لا يصحو ؟ لعله من الأفضل ان لا يصحو . قالت آريا بصوت مرتعش خافت :

- سيصحو الرجل الهرم .

قال الغريب دون ان يلتفت :

- سأمزقه بمديتي .

كاد الدم يتجمد في عروق الشيخ . حبس انفاسه ، وفتح عيناً واحدة نصف فتحة . لم يكن يخاف من الغريب المستبيح على نفسه . وانما تخيله يطعن بمديته صدر منقذ وبطنه . وتراءت له دماء منقذ تندفع من شرايينه وتلطخ سرير الاب وتجلل وجهه المتغضن . رأى وجهه مضرجاً بدم ابنه الوحيد . فأخذت شفتاه ترتجفان . ثم اطبقهما باحكام . فتح الرجل الغريب درجاً من دروج الخزانة ، وتناول البوم صور ، بعد ان قذف قميصاً على الارض .

لم تنبس آريا بكلمة ولا ند عنها صوت . لكنها قبضت على يد الرجل الغريب ودفعته بكل ما اوتيت من قوة الى الخارج . لم يكن الرجل يتوقع هذه الهجمة ، ففقد توازنه ، وكر راجعاً الى الصالة مترنحاً متلاطماً بالجدران ، ثم سقط على وجهه . لم تسعفه قواه على تفادي السقطة . صاح فجأة بآريا بصوت كالخوار . ثم تناهض متثاقلاً ، فتراجعت الى غرفتها وأغلقت الباب وراءها . تداعى الرجل وانحط على ارض الممر . أشعل عود كبريت فرأى البوم الصور على مقربة منه ، بعد ان طار حين تهاوى الرجل واستقر في الممر . تناهض الرجل وضغط على زر الكهرباء . اشتعل الممر بالضوء . أسند ظهره الى الجدار وتناول البوم الصور وراح يقلب صفحاته ، ويطلق بين الحين والآخر شتيمة مقذعة ، ثم يرسل ضحكة حشاش اصيل وهو يردد :

- رجل مقعد ، وولد ابله ، وابنة مهاجرة ، وزوجة خطفتها يد المنون . عائلة مثالية سعيدة .

ثم كأنه يخاطب نفسه :

- حلوة : خطفتها يد المنون هذه . . أليس كذلك ؟ ما معنى المنون يا ترى ؟ انظر . . انظر . . لا بد أنها الابنة الامريكية . انها ترتدي ملابس الرياضة . انظر الى الساقين . . يا الهي . . .

لم يستطع المحارب القديم ان يسيطر على البركان الذي كان يضطرب في اعماقه . فتناول عصاه وحاول ان يتزلق من السرير . وهو يصرخ :

- يا ابن الـ . . .

انتفض الرجل واقفاً . سحب مديته فومضت تحت الضوء . ثم حمل البوم الصور ، ومشى نحو الباب بهدوء وطمأنينة وثقة ثم اختفى بعد ان التفت التفاتة فيها استخفاف واستهانة . في تلك اللحظة فتح منقذ باب غرفة نومه واطل برأسه وهو يفرك عينيه . سأل ببلاهة :

- ماذا حدث ؟

غمغم الأب بصوت كسير لم يدر كيف واتته القوة لاطلاقه :

- لا شيء . عد الى نومك .

-*٨*-

يجلس الاستاذ عبد الرحيم على مقعده المتحرك في الصالة الكئيبة الموحشة وسرعان ما تبتلعه امواج القلق العاتية وتشرد خواطره في مجرات القلق . هل يلفق منقذ حكاية مرضه تلفيقاً متعمداً ؟ ولكن لماذا ؟ هل يصدق فعلاً أنه سينقذ وينقذ البشرية ؟ وهو الذي يكاد يعجز عن ان « يعملها » في المرحاض دون مساعدة حين تشتد نوبة مرضه اللغز ؟ وعبد الرحيم الذي انتظر ولادته سبع سنين عجاف . صحيح انه كان تقدمياً ، غير ان نادية تظل انثى . وهو يُريد غلاماً يحمل اسم عائلته حتى لو تزوج . بوسع الرجل ان يبتز المرأة بقطع

« المساعدات الاقتصادية » عنها ، كما تفعل الدول الامبريالية مع الدول الفقيرة . لكن الذكر ذكر مستقل . وأي استقلال هذا الذي يتمتع به منقذ الذي يعتمد على ابيه وعلى الخادمة « آريا » في كل صغيرة وكبيرة احياناً . لكنه لغز حقيقي . احياناً ينتاب الأب شعور ان منقذ يلفق فعلاً مرضه الغامض ، ويتكلفه تكلفاً مصطنعاً . اذ كيف يمكن للمرء أن يحفظ أعمال شكسبير الكاملة او ديوان المفضليات نخبة قصائد الشعراء المقلين في الجاهلية وأوائل الاسلام منذ القراءة الأولى ؟ لا يستطيع ذلك سوى ببغاء عبقري او جهاز تسجيل . صحيح انه لا يفهم معظم ما يحفظه ، لكن هذه القدرة الفذة على حفظ قصائد وكتابات الاولين والقدماء خاصة من المرة الأولى خصلة محيرة عجائبية . لكنه ، في الوقت نفسه ، سقط في الرياضيات والعلوم سقوطاً فاضحاً ، حتى اضطر مدير مدرسته ان يفصله بعد ان اتصل بالأب مبدياً أسفه ، ومعلناً عن تقديره لماضي وتاريخ وسجل الأب النضالي . « هيء . . هيء . . هيء . . أي سجل هذا ؟ تراكم عليه غبار النسيان حتى كاد يجلله ويدفنه تحت اعماقه السحيقة » .

وينظر الاستاذ عبد الرحيم الى وجهه في المرآة المستديرة الصغيرة . يحمل فرشاة الحلاقة ، ويهم بأن يجريها على وجهه ، يرى ملامح وجهه الحادة التي حفرتها مخالب الازمنة اللجية الصاخبة العنيفة ، ويرى انها امحت تماماً من ذاكرة الجيل الجديد . فيقذف الفرشاة بعيداً بحركة عصبية ، ويرفع ذراعه السليمة ، فيسقط جبهته على كفه .

« سميته منقذ ايام المد . مد حركة التحرر العربية ، حين كنت فارس الفقراء ، أهيمن على آلاف القلوب بسلطان نظراتي المتأججة ، وأسحر الجماهير ببياني الناري الحماسي الغاضب ، وأملك عليهم عنان الخيال بتفاؤلي الزائف ورهاني على انجاز النهضة والوحدة والقضاء على الاستغلال والاستعمار واسرائيل خلال اعوام لن تطول . وطالت الاعوام ، وأصبت بالرصاصة اثناء المظاهرة فحملتني الجماهير بأيديها تحمي جسدي بأجسادها وتتلمس ملايين الاصابع دمي كأنه دم قديس . ويسألني منقذ للمرة الألف إن كنت قد تألمت حين اضطر الطبيب ان يبتر جزءاً من ساقي خوفاً من « الغرغرينا » . . . دون

أن يستخدم اي نوع من أنواع المخدرات . . هيه يا زمن ! »

* * *

والهاتف لا يرن . ولا مرشح واحد يلتمس مساعدة نجم شارع الخمسينات . وكل مرشح بحاجة الى الشارع . . لكنه ليس بحاجة الى نجم الشارع الذي خبا . « لم أكن نجماً ، كنت مجرد شهاب ومض خطفاً في سماء الوطن . . ثم اختفى في العتمة . هل كنت كذلك فعلاً ؟ يا ويلي ! » .

قرأ الختيار كل الصحف المحلية ، وراح كالعادة ، يتصل بكل كاتب عمود . فيعرب عن تأييده لموقف هذا . ويؤنب ذاك على موقفه الذي لا يخلو من نفاق . ويناقش الثالث ويجادله جدالاً مطولاً حول فقرة أوردها في مقالته تتعلق بالمؤتمر الوطني الاردني الذي عقد عام ١٩٢٦ وشارك فيه حسين باشا الطراونة وطاهر الجقة وآخرون . ويصحح معلومات الكاتب ، ويحضه على قراءة تاريخ البلد بدقة أكبر . ويصرخ : « انها مسؤوليتكم التاريخية » .

ويضع السماعة في مكانها بعد ساعة ، وهو يصر على أن لا يعترف أنه يفعل هذا كل يوم لقتل الوقت ، وانما لأنه ضمير حي من ضمائر الأمة . ينبغي مراقبة ومحاسبة كتاب الأعمدة اليومية في الصحف . فهم يوجهون الرأي العام . وأنا اراقبهم واحاسبهم . ثم انهم يتذكرونني ويتخذون ملاحظاتي واعتراضي بعين الاعتبار . حتى ان بعضهم يكتب في اليوم التالي انني اتصلت به ويعرض ملاحظاتي مقدماً لها بكلمات تبجلني وتعبر عن إكبار الكاتب لماضي » .

وعبد الرحيم الامين يقص هذه المقالات التي تشير اليه ، ويحفظها في ملف خاص . يفتح الصحف كل صباح ، ويبحث عن مقالة تشير الى اتصاله الهاتفي مع الكاتب ، فإذا لم يعثر على اشارة الى مكالمة واحدة من بين كل تلك المكالمات التي يجريها صباح كل يوم ، اجتاحته الخيبة ، وأحس بالاحباط . « لقد نسوني » .

ويعيد السماعة الى مكانها . فيظل الهاتف رابضاً ساكناً صامتاً مثل سلحفاة تصر بعناد ان تنكمش على نفسها . . دون أي استجابة لكل الضغوط والاستفزازات التي تحاول ان تجعلها تتحرك ، أو ان تطل برأسها على الأقل .

إنه الصمت الثقيل المرهق . . في هذا الطقس المتقلب . القيظ يصهر الابدان والحجارة . ولا صوت في البيت القديم ، سوى صوت هدير المروحة الكهربائية الرتيب . وطنين ذبابة ملحاحة ذات رأس خفيف . . ولكنه يابس عنيد .

* * *

- ٩ -

اتخذ المحاربون القدامى مجالسهم المعتادة في الصالة . كانوا جميعاً يحدقون الى وجه الاستاذ عبد الرحيم الذي اختلفت عليه الخطوب والاهوال . قال وهو يفرد أصابعه السليمة على ركبته ويخفي انظاره بينها . قال وبصره يتنقل من اصبع الى اصبع :

- لو أخذ ابن الكلب مصاري . . لو أخذ . . لكن البوم الصور . . لماذا ؟ لقد سرق ذاكرتي .

اضطرب قدح القهوة في يد احد الشيوخ حين قال بعصبية :

- لماذا لم تستجر بالشرطة ؟ هل انت متأكد من أن الخادمة لم تتواطأ معه ؟

عكست ملامحه التباساً بين الصحو والغفلة . قال بصوت حالم ، انه يخاف من انتقام المجرم من منقذ . انه يحمل مدية . قد لا تثبت عليه التهمة ، قد يفرجون عنه . فيستبيح البيت مثل كل ليلة . . . وينتقم من منقذ . قال بصوت متهدج :

- لم يبقِ لي في هذا العالم سوى منقذ . اما الخادمة فلا علاقة لها بالموضوع . انه مجرد لص حقير .

تبادل المحاربون القدامى نظرات ذات مغزى اختلسوها في غفلة الاستاذ عبد الرحيم اختلاساً . كانوا جميعاً يعرفون ان منقذ عاجز عجزاً شبه كامل عن التعامل مع العالم . . وانه يعاني من مرض ملغز . مال احدهم نحو اذن الرجل الاصم وقال بلهجة تنم عن يأس من يدرك انه يتحدث الى جدار :

- انه الرجل المريض . أقصد منقذ .

ضرب عبد الرحيم طرف عصاه بالأرض بعصبية وقال :

- لو تعرفون أي صور يضم هذا الألبوم .

سأله محارب قديم منهوك الجسم ، غائر الفم منخسف الخدين باهتمام شديد وهو يضيق ما بين عينيه :

- هل يضم صور عرسكما ؟ أقصد . . أنت وأم منقذ . صور زواجكما أعني .

قال عبد المنعم وقد شرد بصره وسرحت خواطره ، انه لم ير بين النساء أضواً من أم منقذ . ثم تذكر السؤال فقست عيناه ، وأحس بأن في اعماقه طبقات فوق طبقات تهتز بعنف ، كأن زلزالاً على وشك ان يفجرها . تماسك في ترفع وكبرياء . وهتف بقسوة :

- ماذا ؟ سرق صور زواجنا ؟ لقد سرق ذاكرتي يا عزيزي . هل تعرف ماذا تعني الذاكرة لرجال في مثل اعمارنا . . . حياتهم . لقد سرق حياتي كلها . كانت الصور تبعث الحياة في ذاكرتي الشاحبة . . تشعلها بضياء الوضوح . تبعث التفاصيل ، الروائح ، النكهة المذاق ، الاحساس بالبرد بالحرارة . . التفاصيل الصغيرة تبعث حية من جديد ، أعيشها مرات ومرات ، أستعيد كل ثانية منها . . بكل ما تكتنزه هذه الثواني من مشاعر وأحاسيس وانطباعات و . . .

سكت الختيار فجأة حين احس احساساً مباغتاً انه بالغ في الكشف عن عواطفه . عن الانسان الشغيف المرهف الذي يواريه خلف اقنعة وجهه

ونظراته التي توصي بأنه ما زال الفارس المتأهب للنزال في أي لحظة . حيث لا متسع للعواطف والمشاعر والرهافة . حيث لحظة الخطر التي تطلب من القادة اتخاذ هيئة توحي لمقاتليهم بالصلابة الجبارة ، والقسوة الباردة ، والجرأة الضارية .

المحارب القديم الاصم خرج عن صمته لكنه لم يزحزح ذقنه عن مقبض عصاه قال والبهجة تطل من عينيه :

- سوف افاجئكم بنبأ اخفيته عنكم . . بانتظار اللحظة المناسـ

التفتت اليه الوجوه ذاهلة واجمة ، ورنت اليه العيون مـ
قال وهو يلحس شفته السفلى بلسانه :

- قرر مجلس امانة عمان الكبرى . . أن يسمي شارعاً يتذكروننني . . انا لم أطلب ذلك .

وبدأ صوته يتهدج ، وعيناه تلمعان بمقدمات دمع . مرغماً . وسكت وهو يغالب دموعه . كان يرغب في الحديث الخطير باسهاب ، لكن لعن الله العواطف الجياشة . . المعيبة . فـ على الاسهاب الذي يواري في احشائه احتمال نوبة نحيب عاطفية ان تظهر في العلن مثل فضيحة .

ضرب احد المحاربين القدامى كفاً بكف وعلق :

- الناس بالناس . . والقطة بالنفاس .

وعلق آخر وهو يشير الى عبد الرحيم :

- اما حضرة الاستاذ . . فلم يتذكره سوى لص لعين ، ولكن لماذا يسرق اللص البوم صور ؟ لماذا لم يبحث عن مال أو ذهب ؟

قال آخر بأسى وهو يهز رأسه :

- أنا لا يتذكرني احد . لا لص ، ولا امين العاصمة ، ولا شارع .

ضرب عبد الرحيم طرف عصاه بالارض وقال مستنكراً وقد ومضت في

باله فكرة بعثت مشاعر الزهو والاعتداد في نفسه :

ـ ليته كان لصاً . أقول لكم انه لم يكن لصاً . أؤكد لكم انه عميل لجهاز استخبارات دولة استعمارية هرمة .

أصر الاستاذ عبد الرحيم على عدم التطرق الى قصة عشيق « آريا » . لم يقل انه كان يراه يتسلل الى البيت كل ليلة . وانه كان يبصره وهو يستبيح البيت القديم دون مقاومة . ولم يقل ان عشيق آريا « هذا الوغد » كان يستغل عجزه ومرض منقذ .

ضرب محارب قديم كفاً بكف وقال :

ـ هذا جائز . فالمخابرات الاستعمارية لا تنسى المحاربين القدامى . نعم . الاستعمار لا ينسانا . . بينما يشطبنا الجيل الجديد من ذاكرته ، وتنسانا الشوارع التي زرعناها خطى مجيدة . . هل تذكرون ؟

وقال أحدهم انه على استعداد لاعارة الاستاذ عبد الرحيم مسدسه القديم ، اذا لم يكن يملك سلاحاً . وراح يمتدح مسدسه ويحكي عن المسدس كما لو كان يحكي عن سيرة حياة رفيق العمر .

امتعض الاستاذ عبد الرحيم . فتجاهل عرض الصديق وقد دار في خلده أن صديقه يبطن في كلامه عن المسدس ، عجز محارب قديم عن التصدي للص تافه .

ولم يرن الهاتف . ولم يتصل اي مرشح ملتمساً مساعدة الاستاذ ، ولو عبر خطاب محشور في شريط آلة تسجيل . ولم يطلب منه احد ان يوقع على تلك الاعلانات الانتخابية التي تبرزها الصحف وتقول ان « فلان » و« علان » يؤيدان المرشح المناضل فلان الفلاني . ومع ان سجل فلان وعلان النضالي لا يمكن ان يقارن مع سجله أو ان يجاريه . أين الثرى من الثريا ؟

أمسك الاستاذ عبد الرحيم عن الكلام والايماء ، وأضرب عن الطعام حرداً من العالم . منقذ قال ان الاستاذ زعل منذ ان سمع ان مرشحاً يسارياً طلب من الدكتور عبد الرحمن شقير ان يسجل كلمة خطابية تدعمه في مهرجان سينما القدس الانتخابي . وان غضبه وحرده تضاعفا حين بلغه ان المرشح الشركسي منصور سيف الدين مراد تذكر الاستاذ بهجت ابو غربية ومشهور حديثة وطلب منهما أن يشاركا في المهرجان الخطابي لدعم حملته الانتخابية . طار عقله . علق منقذ . قال ان د. عبد الرحمن شقير شبه مقعد مثله . وان مشهور حديثة احد ابطال معركة الكرامة وبهجت ابو غربية الذي شارك في ثورة الـ ٣٦ ليسا أقدر منه في ميدان الخطابة . وان سجله النضالي حافل مثل هؤلاء الثلاثة . فلماذا لم يتذكره احد ؟ وطاش عقله (حسب رواية منقذ) حين قرأ في الصحف تواقيع شخصيات لا يقارن نضالها بنضاله ، وتاريخها المتواضع بتاريخه الحافل بالمواقف النضالية الباهظة الثمن . . . قرأ : فلان وفلان وفلان الخ يؤيدون / المرشح العلاني . لماذا لم يطلب احد توقيعي . احتقن وجهه وقال بلهجة من يواسي نفسه ويعزيها أنه متأكد من ان الانتخابات لن تكون نزيهة ، وان الحكومة سوف تطبق المادة « هـ » من « القانون ١٨ » الذي يحظر على الحزبيين المشاركة في الانتخابات .

وحين دخل المحاربون القدماء ، أمر الاستاذ عبد الرحيم ابنه ان يكتم سر غضبه . وعندما اتخذ كل منهم موقعه المعتاد ، اكتشفوا ان الاستاذ حردان ومبوز ولا يرغب في الحديث . سألوه ، فالتزم الصمت . سألوا منقذ فتلعثم وقال انه تسلم رسالة من نادية ، وانه يرفض ان يفض المظروف ، ويمتنع عن الطعام ، ويضرب عن الكلام لأن . .

حدجه أبوه بنظرة كاوية ، دار معناها في رأس منقذ فقال متلعثماً :

- لانه زعلان من سرقة البوم الصور . . وزعلان من هجرة نادية . انه حردان من العالم .

واقسم منقذ بأغلظ الايمان انه بريء من سبب زعل والده ، على الرغم من ان أحداً لم يتهمه بذلك .

يدور الاستاذ عبد الرحيم في صالة البيت وهو يدفع دولاب مقعده بذراعه السليمة . انه زعلان وحردان من هذا العالم الوقح . عالم كان الاستاذ يشارك في صياغته ، فإذا به يتنكر له ، واذا بقبضة العزلة والحياة الهامشية تنحيه ثم تخفيه بعد ان تتكور عليه . الاستاذ يدور بكرسيه دورات توحي بالعصبية والنزق ، والهاتف على الحجر المجلل بغطاء يربض مثل أخرس أحمق لا يجد ما يقوله . كأنه حيوان صغير خائف لا بد لا يتنحنح ولا يتزحزح .

بغتة انفجر رنين جرس الباب هاتكاً ستارة الصمت الثقيل الجاثمة على صدر البيت . هرع منقذ الى الباب . رحب بالقادم ، وأدى تحية عسكرية ثم قال :

- أهلاً استاذ . . تفضل . . وجهك ليس غريباً عني . أين رأيت صورتك . وجهك مألوف ويشبه صورة مرشح معلقة على واجهة بقالة فتحي الأحمق .

دلف المرشح الشاب ، غالب الاستاذ عبد الرحيم عواطفه الجياشة التي هاجت وماجت دفعة واحدة على نحو مفاجيء ، فغلبته . كرر في نفسه :

- فرجت . فرجت . فرجت . العالم لم ينسني بعد ، العالم ما زال بحاجة الي . فليأت الجميع ليروا ويسمعوا بأنفسهم . . المحاربين القدامى وغير المحاربين القدامى .

اندفع المرشح الشاب نحو الاستاذ عبد الرحيم بخطى متلاحقة وقال بالحاح :

- لا تتحرك وتتعب نفسك أرجوك . الحقيقة انني مقصر معك . لكنك تعرف الظروف .

ولاحظ الاستاذ بزهو واعتداد ان المرشح حرص ان لا يشبك ساقاً على ساق امامه وارجع ذلك الى مكانته في نفس المرشح . قال المرشح وهو يمسح

عرفه انه كان ماراً من هذه المنطقة بعد ان القى كلمة انتخابية في جمعية خيرية قريبة ، وان نفسه قالت له :

ـ ما دمت ماراً من هنا . . ينبغي ان تزور الاستاذ ولو للحظة .

خمدت الانوار وانجابت شعشعة الفرح عن وجه الاستاذ . لكنه حاول ان يطمئن نفسه . فقال :

ـ يا ابني انا اعرفك ، واعرف والدك رحمه الله . وأنا في الخدمة .

وراح الاستاذ عبد الرحيم يذكره بالماضي ، فأشار الى شعبيته ايام الخمسينات . ولم ينس ان يتطرق الى علاقته التي لم تنقطع تماماً بالتنظيمات والقوى السياسية . وكان المرشح الشاب يحدق الى ساعة يده بين الحين والآخر بقلق ، ثم ينظر الى الاستاذ عبد الرحيم نظرة تتوسله الاختصار وتوحي بأنه على عجلة من أمره . إلا ان الاستاذ عبد الرحيم قال انه لن يسمح له بالخروج إلا بعد شرب القهوة . فقال منقذ ان تقديم القهوة من اختصاصه ، اما اعدادها فمن اختصاص آريا . كل شيء منظم في هذا البيت . وراح المرشح يتطلع الى الباب بانتظار القهوة والعرق يتصبب من وجهه . والشيخ يتحدث كلاماً يأخذ بعضه برقاب بعض دون ان يسمح لنفسه بأن يلتقط انفاسه . قال انه صاحب خبرة في خوض المعارك الانتخابية ، وان صوته الجهوري ما يزال قوياً يرسل قشعريرة الحماسة في السامعين .

المرشح الشاب لم يدرك ان هذا الشيخ الذي جعله العجز رهينة الخواء والعزلة يعرض خدماته عليه ليجد له مكاناً في هذا العالم . فقال وهو يحدق الى ساعته :

ـ أرجوك . . لا ترهق نفسك . أنت مريض . كرسي النيابة شبه مضمون .

والشباب يعملون ليل نهار . ولا اريد منك سوى الدعاء والرضى . ونهض ، فهتف ابو منقذ بيأس :

ـ ولكنك لم تشرب القهوة بعد .

قال المرشح انه مرتبط بندوة حول الانتخابات في نادي خرجي جامعة بيروت العربية وانه تأخر عن الموعد . وسعى الى الباب بخطى سريعة متلاحقة ، ولم يلتفت وهو يفتح الباب ويهتف :

- انا مقصر معك استاذ . سأعود في يوم آخر . الى اللقاء .

في تلك اللحظة أطل منقذ حاملاً صينية القهوة . جحظت عيناه وتساءل :

- اين اختفى الاستاذ المرشح ؟

صر الشيخ على اسنانه غيظاً وكاد ان يقول ان المرشح ذهب الى (. . .) لكنه عدل عن هذا القول لأنه لا يرتاح الى الحكي الذي ينزل تحت الحزام امام الناس . فتمالك أعصابه بصعوبة وعض على شفته السفلى ساحباً دموع الفرح التي استحالت الى دموع حزن عميق خفي . وقال يتكلف الكبرياء أن الشاب المرشح توسل دعمه له في الانتخابات ، وانه سيفكر في الامر . فأمر خطير كهذا لا ينبغي البت فيه بلا روية . المسألة تتعلق باسمه . اذا تبنى الشاب انتخابيا . . حسب عليه الى الابد .

قطب الاستاذ الشيخ وقال وهو ينفخ غيظاً :

- وفي الليلة الظلماء يتذكرونني .

- وفكر : « لعل المرشح اراد دعمه ، لكنه خجل من التماسه التماساً مباشراً » . وابتسم ابتسامة ساخرة وقال انه لولا عجزه لملأ الدنيا وشغل الناس . وأمر منقذ الذي لم يفهم ما الذي يحدث بالضبط ، ان يدفعه الى الحديقة ليملأ رئتيه بالهواء المنعش . سأله منقذ وقد اتسعت عيناه :

- لماذا ؟

فرد بعصبية وهو يضرب الارض بالعصا :

- لانني مبسوط . غلط يعني ان اكون مبسوطاً ؟

وهرع منقذ الى المقعد المتحرك . اتكأ الاستاذ على عصاه ، ومشى خطوة

نحو المقعد ، ثم جلس عليه بحركة بطيئة لا تخلو من صعوبة وجهد . وانطلقت العربة نحو الحديقة . قال الاستاذ انه سيتصل بأصدقائه القدامى الذين ما زالوا يخوضون في الحياة العامة . وابتسم ابتسامة المنتصر وهو يحدق الى السماء الرحيبة الداكنة . وكان منقذ يقف خلفه ويقول :

ـ لا تخف . أنا معك دائماً . لن اتخلى عنك . هل تخاف من العتمة ؟

وشرد بال الاستاذ نحو واشنطن . فانقبض قلبه . قضى عمره وهو ينازل الامبريالية ، وها هي ابنته ذات العقل الباهر تستقر هناك بعد ان درست في جامعة جورج تاون ، وتتزوج من رجل امريكي تزعم انه من اصل سوري . الحسرة تنهش القلب . والتفت نحو منقذ الذي كان يناديه احياناً منقذ الامة على سبيل المداعبة . خمس سنوات كاملة وهو ينتظر مولوداً ذكراً . وزوجته المرحومة تنتقل من طبيب الى آخر . والاطباء يقولون انها تحتاج الى معجزة كي تنجب مرة اخرى ، بعد كل هذه التعقيدات التي حصلت لها حين انجبت نادية . لا بد ان اسمها اصبح « ناديا » في عاصمة الامبريالية . وحصلت المعجزة بعد خمس سنوات . وبزغ المولود فسماه منقذ . واذا به يعاني من خلل ما . من معاناة غريبة . « الولد مسطول » كانت زوجته تصيح . هذا ما تبقى لي في هذا العالم . ذكريات مجيدة تنتمي الى الماضي . . وولد مسطول . . خفيف دم واحبه . . وصيدلية في وسط البلد يديرها صيدلاني نصاب وابنة هجرتني وزوجة تركتني ورحلت الى ذمة الله . سبحان الله . ثمة من يقبضون ثمن نضالهم ، وثمة من يدفعون . . . وانا من صنف « الدفيعة » . ملأ الاستاذ رئتيه بالهواء النقي . وملأ عينيه بأضواء الشارع المتوهجة والشاحبة . رنا الاستاذ من الخارج نحو البيت الذي عاد اليه الشحوب بعد مغادرة المرشح . وقال في نفسه :

ـ لو استبقيته على العشاء . لكني لن افض مظروف رسالة نادية . لن اقرأها .

وقال منقذ انه يرغب في ان يدخل الى البيت لمشاهدة المسلسل المصري . تنهد الاستاذ وقال له بغضب ان يفعل ما يحلو له . الاستاذ لا يرغب في العودة الى البيت المثقل بالصمت والوحشة . ومنقذ يريد مشاهدة التلفزيون . وهو لا

يستطيع ان يبقى وحيداً هنا . ماذا لو شعر بحاجة الى كأس ماء أو زيارة للحمام ؟ لكنه ركب رأسه الصخري ، وحطه في رأس منقذ مشاكساً . وكرر كلماته بغضب ومرارة :

ـ اذهب . اذهب وتفرج على الحكي الفاضي . اذهب . . واتركني هنا . في حياتي كلها لم اعتمد على أحد .

ودهمت منقذ مشاعر الذنب . وانقلب على عقبيه وتوجه نحو البيت . وحين فتح الباب وهم بالدخول . توقف بغتة ، ثم حك رأسه كأنما يفكر في مسألة خطيرة ويقلبها على وجوهها . ثم عاد ادراجه الى الحديقة وقال لوالده بفرح الأطفال :

ـ عدت .

قطب الاب وقال انه لا يحتاجه ، وانه لا يريده هنا . ضرب منقذ قدمه بالارض وقال كأنما يحسم النقاش :

ـ أنا أريد .

وداري الاستاذ ابتسامة رضى وطمأنينة . وعاد يملأ رئتيه بالهواء . وغالب ضحكة فغلبته ، فكركر في عبه واتهم نفسه بصمت . قال بلا صوت :

ـ انت لا تخلو من مكر ودهاء أيها الشيخ العاجز . . وهذا الولد طريف وقلبه مثل العسل . . على الرغم من البلاء الذي يسببه لك احياناً .

نادى منقذ . فدار من وراء المقعد ووقف في مواجهة والده متأهباً . ضحك الأب ضحكة انبثقت من اعماق القلب . ومد ذراعه السليمة . وبسط يده فأخذ يد منقذ وقال :

ـ نحن صديقان . . أليس كذلك ؟

انطلقت اسارير منقذ وقال :

ـ انا محسوبك . انت تأمر . ولكن ماذا لو فشلت . . اقصد في انقاذ البشرية حين تأتي المناسبة ؟

يشيح الأب لا يدري أيضحك أم يبكي .

سأله منقذ عن كيفية مشاركته في اسقاط بغداد من عمان . ففهم الأب ان منقذ سمع حديثه ذات مرة عن المظاهرات التي قادها ضد حلف بغداد . وحار ، وكيف يشرح له ان حلف بغداد هو الذي سقط لا بغداد نفسها . ثم رفع يده السليمة واشار الى مجموعة نجوم وقال :

- هذا هو الدب القطبي يا منقذ .

فنظر منقذ الى السماء بذهول ، وقال انه لا يرى دببة على الاطلاق . وبدأ الأب في القاء خطبة عصماء . لا يسمعها إلا منقذ .

* * *

- ١١ -

حين استيقظ منقذ وانزلق من الفراش . تمطى ثم خرج من غرفته وهو يهم بأن يمضي الى الحمام . لكنه توقف فجأة حين لمح والده يحاول المشي في الصالة معتمداً على عصاه . جعل ينظر حوله ليتحقق انه في يقظة . كمن وراء زاوية وراح يراقب والده بعينين ذاهلتين وقد أرتج عليه ولم يفهم . كان الاستاذ يكلم نفسه وهو يجر قدمه المشلولة بصعوبة ومشقة . قال :

- لن اكتفي بالاتصالات . سوف ألقي عشرات الخطب الحماسية في المهرجانات تأييداً لمرشحي . انه مثل ابني . وهو بحاجة لي . شاب مرهف حساس عجز عن التماس مساعدتي مباشرة .

وداهمت الاستاذ ذكريات خطاباته النارية التي كانت تلهب حماسة الجماهير في الخمسينات . ورأى نفسه وهو يقف على شرفة مطلة على شارع طلال ، مقابل الجامع الحسيني الكبير . والشارع يزدحم بالجموع . والجموع تتمايل شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً في طرب حماسي . وهو يطلق صوته القوي ، فيسحر الناس ببيانه ، ويهيمن على القلوب سلطانه . والجماهير تتمايل مشرئبة

بأعناقها ، متطاولة بأبصارها اليه . ويهبط اليهم فيموجون من حوله مهللين هاتفين متدافعين ، يتسابقون لحمله على الاكتاف . يجول بعينيه المتوقدتين فيما حوله فلا يرى إلا وجوهاً محتقنة تتأجج حماسة ، ولا يسمع إلا اصواتاً تهتف ، تعارض الاستعمار وتؤيده ، ولا يلمس سوى ذلك الحب العميق الذي يستقبله به الشارع .

.. وفر الى القاهرة . وسرعان ما تحول الى لاجىء
لجوء السياسي . ليته بقي هنا وسجن . اللجوء
ذاكرة الأجيال الجديدة . كان اشبه بمحارب تقاعد
كة . واجواء اللاجئين السياسيين . اللعنة عليها .
حين انسحب من هذه الاجواء قرفاً وقع في بئر
تلك الاعوام من الغربة والنفي الطوعي . فإذا
ه ويولمون على شرفه طوال ثلاثة اسابيع ، ثم
نشاطاته التي لا تترك له فراغاً يقضيه مع مقعد
لحياة العامة . لعن الله الرصاصة .. ثم

لزهو والخيلاء . واجتاحه احساس بالاعياء
خذ يلتقط انفاسه ويجول ببصره في الصالة
بيت قديم ، والنوافذ ضيقة ، وشعشعة الشمس لا تكاد تفيض بنورها على الصالة . وقع بصره فجأة على منقذ . فهتف بصوت قوي يضج بالحيوية :

- تعال .. يا بطل سنلعب الورق . سنلعب « باصرة » .

تقدم منقذ منه ذاهلاً شارداً وكان يقتلع قدميه من الارض اقتلاعاً .

سأله :

- ماذا كنت تفعل ؟

قال الأب وهو يمد ذراعه السليمة ويتناول اوراق الشدة عن منضدة قريبة

انه كان يتصل ببعض الاقطاب والقوى التي يملك دالة عليها كي يدعموا المرشح الشاب . فهز منقذ رأسه حائراً وقال بدهشة :

ـ كنت تمشي . رأيتك تجتاز الصالة كلها متكئاً على العصا ثم مَنْ هو هذا المرشح الشاب ؟

وضع الاستاذ ورق اللعب على الطاولة متجاهلاً ملاحظة منقذ ، وقال انه يرغب في ان يلعب « باصرة » . فقطب منقذ واعترض قائلاً انه لا يرغب في لعب الورق . وانه يرغب في لعب لعبة الثعابين والسلالم . احتد الأب وتناول ورق اللعب عن الطاولة ثم ضربه بالطاولة بقوة وقال ان منقذ مغرم بمناكفته ومشاكسته . واتهم منقذ بأنه يفشل في لعبة الثعابين والسلالم . قال :

ـ أنت غشاش يا بطل . حين يقترب قرصك من فم ثعبان تثب خانة او خانتين وتتجاوزه . هل تظنني اعمى . . . ثم انك رأيت المرشح فلماذا تسألني عنه ؟

ومنقذ يضرب كفاً بكف ويقول انه رأى الاستاذ يمشي بأم عينه . كيف مشى كل هذه المسافة ؟ فصاح الاستاذ وقد نفد صبره :

ـ تعال . . تعال . . احضر لعبة الثعابين والسلالم . . وخلصني .

وهم منقذ بمغادرة الصالة كي يحضر « اللعبة » فركض صوت ابيه خلفه وطرق مسامعه :

ـ سوف أخطب في المهرجان الانتخابي الذي سيقيمه مرشحنا . هل تعلم ماذا يعني ذلك ؟

تابع منقذ سيره وغمغم دون ان يلتفت انه لا يعلم ماذا يعني ذلك . « منقذ اذهب ، منقذ تعال ، منقذ احضر هذه اللعبة . منقذ ادفع مقعدي المتحرك ثم يقول : هذا المرشح مثل ابني . هذا المرشح لا يدفع مقعدك المتحرك ، ولا يغطيك حين تأوي الى السرير ، ولا يستقبل ضيوفك النادرين . أنا الذي افعل كل ذلك . ثم تقول انني غشاش . . بعد كل هذا . مَنْ الغشاش ، أنا ام انت ؟ ها أنت تستطيع المشي . ما إن جاءك هذا المرشح

المزعوم حتى دب النشاط فيك . أما منقذ البطل فليذهب الى الجحيم . يا بطل احضر لي كوباً من الماء . منقذ يا بطل . . افتح الباب . منقذ ادفع مقعدي . هذا ما أنت شاطر فيه » .

كان منقذ يكلم نفسه ، وعاد وهو يحمل الورقة المقواة ، والنرد والاقراص الملونة . بدا حرداناً مبوزاً وهو يمشي بتثاقل ويتمايل ويغمغم كلاماً غير مفهوم . اتخذ مجلسه مقابل والده . ووضع الورقة المقواة ذات الخانات الملونة وصور الافاعي والسلالم على الطاولة . ابتسم والده ابتسامة تشي بنشوة يحاول ان يداريها . حمل النرد وقال :

- سأقف خلف « الميكروفون » وازلزل القاعة . سأعود الى ذاكرة الناس بيسر . سأثبت للاصدقاء القدامى انني ما زلت ذلك الفارس الذي يهيمن على قلوب الناس حين يقذف كلماته النارية و . . .

قاطعه منقذ :

- العب .

حدق الى منقذ بغيظ . ثم رمى النرد ، وبدأ النزال بينهما . وأقبلت آريا تحمل كأسين من العصير . وقالت انها رأت الاستاذ يمشي متكئاً على العصا . وانها سعيدة لأنه استعاد نشاطه . ولكنها لا تريده ان يرهق نفسه . وقال الاستاذ بعصبية دون ان يرفع رأسه :

- طيب . طيب . حلي عني .

وضرب منقذ قبضته بالطاولة احتجاجاً ، وطلب من ابيه ان يحسم الموقف .

رفع الاستاذ رأسه دهشة ونظر الى منقذ بحيرة وسأله :

- أي موقف ؟

فنهض منقذ . وقال انه لن يواصل اللعب حتى يقرر أبوه من هو صاحب

الكلمة والسلطة في هذا البيت . ومن هو المسؤول الأول والمباشر عنه : منقذ أم آريا ، أم المرشح المزعوم ؟

تنهد الاستاذ وابتسم ابتسامة ساخرة وحدث نفسه قائلاً :

- يبدو أننا ازاء مشكلة صراع على السلطة هنا . .

قال لمنقذ :

- آريا تعيش معنا منذ اعوام طويلة . ثم لماذا تتهم المرشح بأنه مزعوم ؟ ألم تره بأم عينيك ؟

انتفض منقذ كالملسوع وقال :

- العب معه هو اذن ؟ انا لن ألعب !

فسارع الاستاذ الى تصحيح الموقف . وأكد ان منقذ هو المسؤول المباشر عنه . قال :

- أنت ممثلي الشرعي والوحيد . هل تفهم ما معنى ذلك ؟

قال منقذ انه يفهم ذلك . وان ذلك يعني ان آريا « عبدة » سوداء ، وانه هو ابنه الوحيد . فتح الاب فمه ليحتج ويستنكر حكاية العبودية ، غير انه كان يرغب في اللعب . قال في نفسه :

- اذا غضب هذا الولد المنكاف . . فإنه لن يلعب معي .

رفع الأب رأسه على نحو مفاجيء وتساءل بغضب :

- أنت لم ترد على سؤالي . ألم تر المرشح الشاب بأم عينك ؟

قذف منقذ النرد ، وتساءل وهو ينقل قرصه من خانة الى اخرى :

- أي مرشح ؟

لهجة اللامبالاة التي تمت عنها عبارة منقذ اثارت ثائرة الاستاذ ، اكثر من النفي المبطن ذاته . أي حياة هذه . عشيق آريا يستبيح البيت كل ليلة ، ومنقذ سوي وغير سوي ، عبقري وابله . والمرشح الاحمق اطلق جماح الأمل في نفسه ثم شكمه وكظمه فظل معلقاً بين الأمل واليأس . وابنته في امريكا . . وآريا

تخون الامانة ، وام منقذ تركته وانتقلت الى جوار ربها ، والشارع شطبه من الذاكرة وكيف يريد بعث الامة كلها وهو عاجز عن بعث وملمة وضبط بيته واسرته .

حاول في شبابه احياء الامة ففشل ، وها هو يحاول اضفاء حياة طبيعية على بيته بلا جدوى ، وتساءل الاستاذ بقلق عميق : ترى . . ألم يكن المرشح سوى ضيف يراه شيخ خرف في احلام يقظته . لا . . غير معقول . لم ينل مني الخرف بعد . لا . . أبداً . بوسعي ان اتصل بالمرشح واتأكد . ولكني متأكد . فلماذا اتصل اذن ؟

* * *

- ١٢ -

ها هي خطوات آريا تتناهى الى مسامع الاستاذ عبد الرحيم وهو منكمش في سريره وقد نبا به مضجعه ، واتقد القلق والأرق في رأسه . سوف تفتح له الباب كالعادة . ابنة الكلب . . . ومنقذ يغط في نوم عميق . يحدق العاجز في ليل العتمة . لا يكاد يميز ملامحه الدقيقة . يرى شبحاً نحيلاً طويلاً يتقدم منها على رؤوس اصابع قدميه . تستقبله بالاحضان . ويبدآن هذا العبث المشين . والرجل المشلول يحدق اليهما وهما يخبئان ضحكاتهما الماجنة في عبيهما . آريا تخبىء ضحكتها واصابع الرجل في عبها . وضوء الممر يرسل هنا وهناك نوراً شحيحاً . يتجليان ويختفيان امام عيني الرجل الذي زلزل عمان ذات يوم ، ثم لدغته الرصاصة فبترت ساقه ، ثم جاءت الجلطة لتجهز عليه وتسبب له شللاً نصفياً . وصار ابو منقذ عاجزاً . النهار يحرر البيت ، الشمس تصونه بالوضوح . وفي الليل يقبل هذا الغريب الطارىء فيستبيح كل ما هو حميم وخصوصي .

يهمس في أذن الخادمة :

- لعله لم ينم بعد .

تضحك ضحكة خافتة مثل نور الممر وتهمس :

ـ انه عاجز .

ويقول المقتحم الناهب بلهجة تشي بالتوجس وهو يقلب مسدسه بين يديه :

ـ وابنه ؟

تمسد الخادمة على شعره وتأخذه الى صدرها الناهد وتقول :

ـ غافل عن الدنيا . . أبله .

ويتساءل الاب في يأس وهو يراقبهما بنظرات فيها عجز ويأس وخوف على منقذ :

ـ هل هو كذلك فعلاً . . أم أنه يمثل دور المعاق . . ويتكلفه تكلفاً كما يقول ؟

ويخشى الاب ان يصرخ . كي لا يستيقظ منقذ فيكون ضحية هذا الشبح الانيق ذي البذلة الفاخرة .

ويخشى ان يطلب الشرطة ، فإذا بالشبح ابن رجل متنفذ . يسجن يوماً او بعض يوم . . . ثم يخرج لينتقم من منقذ .

« ماذا تبقى لي في هذه الحياة سوى منقذ ؟ »

في البدء . . كانا يحتاطان كل الاحتياط . فتدخله الى غرفتها ، وتقفل المزلاج . ثم جعلا يستبيحان البيت شيئاً فشيئاً . . بعد ان اكتشفا ذات ليلة ان الأب يراهما ، وانه يفتح فمه ليقول لا ليصرخ وانما ليعلن جهراً دون صوت ولا ضوء ولا حركة عن ذهوله الكسيح . وتجاوزا رعب البرهة الأولى . . . ثم بدأ التمادي . كان الشبح الانيق يدخل غرفة نومه المعتمة . بيده مشعل كهربائي صغير وفي فمه سيجار ، ينفخ السيجار في وجه رجل ذي قناة لم تلن يوماً . . فكسرها المرض . غير ان بقاياها ظلت صلبة لا تلين يفتح الخزانة يتناول البوم الصور الفوتوغرافية الثاني ، مخزن الذاكرة ومتحف الحياة والماضي . يطلق ضحكات بريئة وهو يحدق الى صور الرجل المشلول العاجز وهو يقف على شرفة مطلة على الجامع الحسيني في وسط البلد ويرفع ذراعه (التي تعطلت بعد

النوبة) محيياً عشرات الوجوه المشعة في غمرة الظهيرة . يتناول صورة العاجز في زفافه . يكركر ضاحكاً وهو يعلك اللبان بعصبية ويقول دون ان يلتفت :

ـ كانت المرحومة فاتنة . هل كنت تستمتع بها ؟ لماذا خضت في السياسة اذن ؟

وعبد الرحيم يحدق اليه بعيني مصموق فقد قدرته على الكلام . يدس الشبح صورة العروسين في جيب سترته الداخلية . يغمغم الاب بصوت مخنوق :

ـ لا . .

فيطغى شخير منقذ على صوته . ثم تنضم الخادمة الى عشيقها ، فتمد يدها وتتناول زجاجة عطر المرحومة بحذر وبأصابع ترتعش . تلتفت بغتة الى الاستاذ عبد الرحيم ، فإذا هو يحدق اليها بعينين مبرقتين واسعتين عاصفتين صامتتين ، وعلى تخوم صمتهما الذي يشق بطن السماء بزعيقه المزلزل تلمع دمعتان متحجرتان . فتطمئن الخادمة وتضحك . تتعطر بعطر المرحومة ، ثم تتناول سوارا من اساورها ، تضعه حول معصمها ، وتأخذ الشاب بين يديها . ثم صارا يفعلان « كل شيء » امام عينيه بسادية لم يفهم لها سبباً . كانا يضطجعان على السرير المجاور لسريره . سرير المرحومة . . ويطلقان الضحكة المعربدة تلو الآهة الملتهبة . وهو ينكمش على نفسه ، يهم بأن يشيح بوجهه ، لكن قوة خفية جبارة تسيطر عليه ، لا يستطيع لها مقاومة ، تدفعه الى مراقبتهما ، كأنما ليذكر نفسه بعجزه الكامل . كأنما يرغب في مراكمة حقده عليهما . . وعلى عجزه . كأنما لا يريد ان يغض من بصره عما يحدث قربه من فعل بشع شنيع ، لا يمس جسده ، لكنه مع ذلك يزلزل كيانه من الأعماق .

فإذا به ينشد بصوت متقطع هامس سرعان ما يعلو ويقوى :

ـ أنا ان سقطت أيا رفيقي فخذ مكاني في الكفاح .

ينتفض الشاب فزعاً ثم يثوب الى رشده ويقول بذهول :

ـ أنت مجنون .

فيقول العجوز :

- انني اغني . غير ان ذاكرتي بدأت تخونني .

ثم يحدق الى وجه الشاب جيداً.ويقول :

- كنت ارى من الشرفة وجوه آلاف الشباب . كانوا في سنك . ربما كان أبوك واحدا منهم . وكانوا يهتفون .

ينفخ الشاب علكته فيتكور شكل ما اشبه ما يكون ببالون صغير ثم يفرقعه . . فتداهمه نوبة ضحك هستيري . يقول :

- أبي ؟ أبي كان يبغض أشكالكم . كان يسميكم حفنة من الصعاليك والرعاع .

فيتنهد الاب ويقول :

- الحمد لله . إذن لم يكن من الذين منحتهم حياتي . أرجو ان تعيد الصور الى الألبوم . يكفي انك سرقت الالبون الأول . قل لي . . ألن تعيده ؟ بماذا تفيدك الصور ؟ وتقول الخادمة مقاطعة :

- يا مستر . . أنا هنا . . هل نسيتني ؟

ينطلق صوتها النحيل من اغوار العتمة السحيقة . فلا يلتفت الشاب اليها ، وانما يتناول مديته دون ان ينهض ، يلوح بها أمام وجه الاستاذ عبد الرحيم :

- لا تشوشني . اذا كنت مستوحشاً وترغب في الحديث ، فاذهب ماشياً على قدميك الاوليتين . . . هيء . . هيء . . الى غرفة ابنك المجنون ، واحك له قصة حياتك .

فيبتسم الاستاذ عبد الرحيم بمرارة ويكرر :

- أنا ان سقطت . . فخذ مكاني . . أيا رفيقي . . في الكفاح . . لا لا . الكلمات ليست دقيقة . ثمة خلل في ذاكرتي . هل تذكر القصيدة ؟

يزعق الشاب :

- أنا لا أحفظ قصائد .

يقول الاستاذ عبد الرحيم باعتزاز وزهو :

- منقذ يحفظها عن ظهر قلب .

فيجيبه الشاب والعرق يتصبب من وجهه وصدره بسلسلة من التأوهات التي ترد عليها الخادمة بأنين متقطع .

* * *

- ١٣ -

هبط منقذ الى الشارع وسعى الى البقالة المجاورة . كان فتحي يجلس على مقعد خشبي صغير ويحدق الى العدم بعينين بليدتين . ويكش ذبابة تطن حول اذنيه ثم تستقر على أنفه . كان يباعد ما بين فخذيه ويسند مرفقيه عليهما بينهما اخذت يداه وجهه المتضمر. حياه منقذ فلم يرد التحية وظل يحدق الى العدم . وقف منقذ حائراً والشمس تقتحم عينيه وهو يحاول مغالبتها ، فيرفع كفه فوق عينيه ليظللهما . وقال ان الدنيا حر . رفع فتحي رأسه وقال ببلادة :

- تشرب كازوزة باردة ؟

حك منقذ رأسه كأنما يقلب الامر على وجوهه ، ثم قال انه لا يحب الكازوز ، وانتبذ مكاناً ظليلاً . . فتراجعت ضراوة الشمس تراجعاً منظماً .

وكركر فتحي كاشفاً عن فم تناثرت اسنانه هنا وهناك كيف ما اتفق بينما ركبت بعضها بعضاً كأنها تعاني من ضيق وازدحام في اماكن اخرى . وسأل فتحي منقذ :

- لا تحب الكازوز ؟ ماذا تحب اذن ؟ لا تقل لي حليب السباع او الجن فتوقعني في مشاكل مع الوالد .

ابتسم منقذ ابتسامة غامضة ، وومضت عيناه ببريق اسطوري وقال انه يحب سعاد . أظلم وجه فتحي واتسعت عيناه اتساع من يرى ما لا تصدقه العيون . ثم اشرق وجهه بعد امتصاص الصدمة . وأطلق ضحكة مجلجلة وقال ان سعاد تحب ذلك الرجل الذي باع قطعة ارض ، ثم حولها الى سيارة مرسيدس ، ثم حول سيارة المرسيدس الى حطام .

ومنقذ لا يفهم هذا اللغز . سعاد لا تكذب . وهي تقول له عندما تضمه الى صدرها :

- يا حبيبي الأول والاخير .

ويتنشق رائحة شعشعة الشمس من صدرها . وتلدغه رعشة لذة بريئة . ويقول في نفسه انه سيتزوجها . وسعاد لا تكذب ، لأنها لا تحب النار . والكاذب يذهب الى جهنم . وهي تقول انها تحب البحر لا النار . وانها لا تحب عمان ، لأن عمان بلا بحر . ولم يملك منقذ نفسه ، فهرع يركض في الشوارع والدموع تنحدر من عينيه . وهو يردد :

- فتحي كاذب . فتحي سيذهب الى جهنم .

وحين اوشكت الشمس على المغيب ، هبط المساء الرمادي على المدينة ، فاكتأبت . كان النهار ينثني والمدينة شاحبة . وعاد منقذ منهكاً بعد ان دار في شوارع جبل عمان كما يدور المرء في متاهة صحراوية . وحملته قدماه المتعبتان الى بيت سعاد . استقبلته بابتسامتها المشرقة فانتصب النهار واستعاد حيويته واندفع دم جديد فتي الى وجهه . وقالت سعاد :

- تعال . يبدو انك متعب . أين كنت يا حبي الأول والاخير .

ودلف منقذ الى الصالة ، وشق طريقه في زحمة الصمت الثقيل ثم جلس على أريكة ، وقد اتخذ وجهه هيئة الحرد . سألته سعاد :

- أنت مبوز . . مَنْ زعلك ؟

هز رأسه كالحردان وقال ان فتحي البقال يحكي عنها . وانه قال انها تحب

رجلاً باع ارضاً بآلاف الدنانير ، ومنقذ لم يفهم القصة بالضبط . لا فهمها . . ولكن ليس بالضبط . لأنه لم يفهم العلاقة بين المرسيدس والارض والحطام . وشعت عيناه بضياء ساطع . قال وهو يتطلع اليها بلهفة وقلق : انا لا أصدق فتحي . وانتظر ان تحسم شكه باليقين . لكن انتظاره طال . وهي أشاحت بوجهها كأنها تتجنب عينيه وصدره يعلو وينخفض . وود أن يسألها سؤالاً مباشراً ان كان كلام فتحي البقال صحيحاً لكنه سألها عن أمها . فقالت انها متعبة ونائمة . تنفس منقذ الصعداء ، فهو لا يحب امها . وجلست سعاد الى جانبه وضمته بذراعها وسألته :

ـ لماذا انت زعلان ، ما دمت لا تصدق فتحي ؟

برم منقذ شفته السفلى . وضرب الارض بقدمه . وقال ان فتحي كاذب ، ولكنه قد يصدق . واخذت سعاد وجه منقذ بين يديها وقالت ان الرجل الذي يحكي عنه فتحي ، باع ارضاً ، واشترى سيارة مرسيدس فخمة ، وانه كان يقودها وهو في حالة سكر شديد ، وانه ارتطم بجدار فتحطمت السيارة ، ولأنه كان في حالة سكر شديد ، فقد رفضت شركة التأمين ان تدفع . وهكذا خسر الرجل الارض والسيارة . ورفع منقذ عينيه نحوها وقال انه فهم الآن . لكنه لم يفهم تماماً . انه يفهم الاشياء ولكن نصف على نصف . وان والده يقول انه ذكي وشاطر . وأن الحياة معقدة ، ومن يستطيع فهمها نصف على نصف . فهو عبقري . لأن بعض الناس لا يفهمونها أبداً .

حرر منقذ وجهه من بين يدي سعاد الناعمتين وسألها ان كانت تحبه كما يحبها . وكان يرتعش وكلماته تتلعثم وتتدافع والدم يكاد يجمد في عروقه . فأخذت يديه بين يديها . وفكرت ملياً وقد اتخذ وجهها هيئة الجد والوقار ، وقالت انها تحبه . لكنها ينبغي ان تكون صادقة معه . وقالت ان ما ستقوله قد يكون مؤلماً . وأعد منقذ نفسه للألم القادم ، فأغمض عينيه . وقامت سعاد تاركة يديه . ووقفت الى جانب الشرفة كأنها ترغب في ان تنأى بالألم الذي

سيقبل عليه مسافة قليلة . وقالت دون ان تلتفت اليه انها تحبه لكنها لا تستطيع ان تتزوجه . قالت : « احبك على طريقتي الخاصة » !

ورفع منقذ رأسه وحدق اليها بعينين ذاهلتين ، وفكر ان هذا العالم عصي على الفهم ، وسألها ان كانت ترغب في ان تتحول الى راهبة . فابتسمت ابتسامة حزينة . وقالت :

ـ لا

ولم يفهم منقذ كيف تحبه ولا تستطيع الزواج منه . وتصبب العرق من جبينه ، وقال انه يرغب في كازوزة . وهب نسيم فاتر من النافذة فعبث بشعرها الطويل كالحياة ، وقامت الى المطبخ ثم عادت حاملة كوباً من العصير . قالت :

ـ ليس عندنا كازوز .

ومنقذ يكره العصير والكازوز . لكنه اراد ان يخلو بنفسه برهة ليمسح دمعة تلح على السقوط . فمسحها حين مضت سعاد الى المطبخ . ولما قدمت له العصير قال :

ـ لا أريد .

وحث نفسه على الكلام ، وأحس بعرق لزج في كفيه . خاف ان تأخذ كفيه مرة اخرى بين يديها ، قال انه اذا كانت المشكلة تكمن في أنها عاجزة عن الانجاب . . فالاطفال ليسوا مشكلة بالنسبة له . بل هو يبغض صخبهم ولغطهم .

وسقطت ذقن سعاد على صدرها ، وشبكت يديها وبدأت تذرع الصالة بعصبية . ثم توقفت ونفت ان تكون عاجزة عن انجاب الأطفال . ورفع منقذ حاجبيه وقال انه لا يفهم ، وقالت انها تميل الى الرجل الذي باع الأرض واشترى المرسيدس ثم حطمها . لكنها تحب منقذ حباً مختلفاً .

وانهار منقذ مثل بناية كبيرة يصورها التلفزيون وهي تتداعى تصويراً بطيئاً . ولم يقل لها أنها خائنة ، وانها كانت تكذب حين تقول له :

ـ انت حبي الأول والاخير .

وفتح فمه ليقول فلم يجد ما يقوله . مست ذراعه برفق وقالت انها كانت تحبه وما تزال . . . لكنه حب من نوع خاص . انتفض منقذ كثور هائج . كاد يصفعها ، غير انه تناول كأس العصير وقذف به الى الارض ، ثم راح يدوس ويضرب بقدمه شظايا الزجاج الذي تناثر .

خرج هائماً على وجهه . وخلفه صدى صوت سعاد يناديه ويناى . وجلس منقذ على رصيف مقابل الدوار الثالث . كانا يجلسان هنا . وتقول له انت حبي الأول والاخير . وكان يحب الحياة لأن هذه المرأة التي تستحم بشعشعة الشمس تحبه .

وكان أبوه يقول :

ـ احرص ان لا تتعلق بها اكثر من اللازم .

ومنقذ لا يرد . وكانت تمشي في الشوارع ، أيام زمان ، فيتتبعها ويقفو آثارها ، وهي تخرج من المدرسة الأهلية للبنات بمريلتها البنية وقميصها الابيض وجديلتها التي تشبه ذيل فرس وكتبها الملتصقة بصدرها الغامض .

حين عاد الى البيت كان والده نائماً . فقالت آريا ان والده كان قلقاً . ثم اخذته من يده والنار تتأجج في عينيها وسألته إن كان يفهم مغزى اشتباك يد امرأة بيد رجل ، وسألته ماذا يفهم اذا دعته امرأة الى غرفتها ؟ قالت انا ادعوك . . فهل تفهم ؟

فقطب وغمغم وهو يحرر يده من يدها بحركة عنيفة :

ـ ليس لي مزاج للحزازير . هذا ليس وقت حزازير .

مضى الى فراشه ليبكي حبه المغدور ويبلل وسادته . وهو يتساءل ما معنى « الحب الخاص » . ولماذا تميل الى صاحب المرسيدس المحطمة ما دامت تحبه

حباً خاصاً ؟ ينبغي ان لا تميل . ينبغي ان تقف منتصبة الى جانبه دائماً ، ولا تميل الى احد . لكنها تميل الى صاحب المرسيدس المحطمة . وهي أجمل من المرسيدس ، ولها رائحة شعشعة الشمس . إنها تستحم « بشامبو » الذهب السماوي . . . فلماذا تميل ؟ قال تميل اليه قال . جسده يسبح في بركة من العرق اللزج ورأسه يسبح على مستنقع الدموع المالحة . بغتة عنت له فكرة الانتقام منها . قال لنفسه بلهجة تنم عن حقد نجح في تنفيس كل بخار الغضب الذي تراكم في صدره :

- حين تأتي اللحظة المناسبة . اللحظة التي يطويها القدر . . فتنكشف . . لانقذ البشرية جمعاء . . فإنني سوف استثني سعاد وصاحب المرسيدس . لن انقذهما من عذاب البشرية .

وابتسم ابتسامة مريرة في رضا وزهو .

* * *

- ١٤ -

وقف الاستاذ عبد الرحيم امام المرآة ، حدق الى نفسه ، رأى رجلاً شيخاً طاعناً في السن متداعياً متهالكاً ، لكن الاحداث لم تقصم ظهره بعد . صحيح انه كان يمتنع عن تناول الادوية حين ينقطع الناس عن زيارته عدة ايام متتالية . لكنه سرعان ما كان يعود اليها راغباً في الحياة حين يسمع نبأ مفرحاً عن الانتفاضة في فلسطين ، او حين يأتيه زائر فيذكره بأيام الخمسينات . هذا الجسد المنهوك يوحي ان لا قبل له بمصارعة الزمن ، ولا طاقة له على مغالبة الحياة . لكن داخل هذا القفص الصدىء روحاً تتعطش للعودة الى الحياة العامة . وها قد آن الاوان . سيلقي خطابه في مهرجان دعم المرشح الشاب . سيكون نارياً يلهب حماس الجماهير :

« أيها الجماهير . . المعذبون في الارض ينبغي ان يحاسبوا الفاسدين

والسماسرة الـذين حلبوا البلد دون حسيب او رقيب . نحن مع الافراج عن الدستور . . نحن مع . . . »

ولكن ماذا لو ارتعشت يده فاهتزت الورقة التي كتب عليها خطابه ؟ سيعتقد الجمهور انه مضطرب ، وأن قدرته الفذة على مواجهة الجمهور قد ضمرت مع عدم مزاولتها . سيعترف للجمهور . سيقول ان يده لا تهتز اضطراباً ، ولكنه العمر أوغل في الحياة . وسيصفق الجمهور . سيقول :

- أيها الجيل الجديد . . .

وجاء منقذ وهو يرتدي منامته وكان حرداناً مبوزاً . رآه الأب في المرآة فلم يلتفت اليه . وانما كرر خطابه :

- أيها الجيل الجديد إن . .

مد منقذ يده وجذب ذراع أبيه برفق وقال بصوت متهدج ان سعاد تميل الى رجل آخر ، فقال الاب دون ان يلتفت :

- إن الديموقراطية هي سمة هذا العصر الجديد . وهي الجسر الثابت الآمن الذي سينقل بلدنا الى القرن الحادي والعشرين . وعلى المتضررين من اشاعة مناخ الحرية ان . . .

شده منقذ هذه المرة بقوة وقال ان سعاد تميل الى رجل محطم حطم سيارته ، والشركة لن تدفع لأنه كان سكران .

قال بالحاح وهو يحاول شد انتباه ابيه بالاضافة الى ذراعه :
سعاد كانت تخدعني . . مثلما تخدع نفسك .
حرر الأب ذراعه من قبضة منقذ وقال بسخط :
- انظر . . انها ترتعش .

جفف منقذ دمعة سطعت على خده وقال انها لم ترتعش . وانها اعترفت بنفسها دون ان ترتعش انها تميل الى الرجل . تناول الأب مجموعة اوراق بيضاء ، ورفعها بيده وحدق الى المرأة . ارتشعت يده فارتعشت الاوراق .

وكانت بقايا شعشعة الشمس المتناثرة هنا وهناك في البيت الكئيب شحيحة شاحبة . والشارع في الخارج ينبض تحت اقدام سعاد وهي تمشي . قال منقذ كمن اكتشف مفاجأة انها تمشي في الشارع هي وخطواتها ورعشة الشمس . وابوه يحدق الى رعشة الاوراق في يده التي لا تهب عليها الرياح . واتسعت عينا منقذ وقال انها تدخل بوابة بيتهم ، وخفق قلبه ، وارتعشت يد الشيخ ، واهتزت الاوراق في يده المرتعشة ، وأوراق الشجر ثابتة جامدة بانتظار ريح لم تأت . وانطلق رنين الجرس . وقال الاب :

- انه مرشحنا العزيز .

وقال منقذ :

- انها سعاد . وأنا لا أريد ان أراها لانني زعلان .

وفتحت آريا الباب ، وأطلت سعاد . وأحس الأب بأحشائه تتقطع قهراً . ووقفت سعاد بالباب ، وكان حضورها باهراً يفرض نفسه على وحشة البيت وكآبته . والبيت يبعث الى الحياة . يشع ، ينبض ، يخفق ، تتسع النوافذ وتدخل شعشعة الشمس من عيني سعاد وتفوح من رائحتها . ورائحتها تملأ البيت بنكهة منعشة . لكن منقذ يصر على عدم الاستسلام بسهولة . والأب يوليها ظهره ويحدق الى يده المرتعشة في المرآة . وهي تقف بالباب حائرة وتشع . وتدعوها آريا الى الدخول . وشعرها خلفها والباب خلف شعرها . والباب مفتوح ، وشعرها يجتذب روائح الحديقة بقوة مغناطيسية خرافية ويميل نحو الارض ، وهي تميل نحو ذلك الرجل . وظلت واقفة وسألت عن منقذ . ومنقذ خاف ان تيأس وتعود من حيث اتت . فهرع نحوها ، مدت ذراعيها فتراجع خطوة ، ونكس رأسه . وهمت بالعودة . فقال منقذ بصوت رسمي فيه رجاء خفي :

- تفضلي .

دخلت سعاد وسعت الى الصالة . وكانت الارض تحت خطواتها تجري ، وقلب منقذ يخفق بقوة . وظل الاب في غرفته امام المرآة . كان يلعن الشيخوخة والجلطة ومرض السكري . وأحس بدغدغة ملحة في أصابع

قدمه . فجلس على طرف السرير بتثاقل وانحنى وحك اصابع قدميه بقوة ، فلم يشعر بشيء . وسعاد في الصالة تبتسم ، وتضم يديها على حجرها ، وتقول وهي تنكس رأسها بلهجة تشي باحساسها بالذنب انها اسفة وانها لم تعرف ان كلامها سيجرح مشاعره . ورفع منقذ رأسه فارتجف عنقه واهتز رأسه بقوة وسألها :

- يعني ستستقيمين ؟

ونظرت اليه بعينين مستطلعتين . فوضح قائلاً :

- يعني انك لن تميلي اليه .

ابتسمت سعاد ابتسامة هينة ضئيلة سرعان ما اتسعت ، ثم ضحكت بعينيها وشفتيها في آن معاً . ونهضت من مكانها وجلست قرب منقذ . ومالت عليه ، وهمست :

- ستظل حبي الأول والاخير .

ارتبك منقذ . واشار الى غرفة ابيه . وقال ابي هنا . وخفق قلبه ، ثم احتقن غضباً وقال ان والده لا يترك البيت . لا يترك له اي حرية .

وقالت سعاد بحنان :

- ابوك جبار . . ولكنه مقعد .

فضرب منقذ كفاً بكف وأكد ان والده مقعد . وسألها ان كانت تميل الى الرجل الذي باع ارضه وسكر وحطم السيارة . وقال انه يسكر احياناً ، لكنه يشعر بالقوة حين يسكر ، ويزهزه ثم يبكي . لأنه بحاجة الى البكاء احياناً . لكنه لا يحطم السيارات ابداً . وقالت سعاد انه لا يقود سيارة اصلاً . ضرب قدمه بالارض وكشر وتقلقل في مجلسه وفكر ملياً وقال انه يعني انه لو كان يتقن قيادة سيارة ، وكان سكران ، فإنه لن يحطمها .

وامتلأت الصالة بضحك سعاد ذي الرنين الذي يلخبط الاعماق ويهزها بعنف بهيج . وصاح الأب وعبر صوته الصالة المشعة ببهاء سعاد ، وكان صوته قاتماً ، وحين عبر الفضاء وبلغ مسامع سعاد ومنقذ أشرق لأن سعاد تفيض على

الخفي والمتجلي من الأشياء التي تحيط بها نوراً وضيئاً . وصرخ الأب مرة اخرى :

- احضروا الطبيب . . يا عالم .

وكانت يد سعاد بين كفي منقذ . حررت سعاد يدها . وسعت الى غرفة الاستاذ بخطى متسارعة ، وأحس منقذ ان مصدر رعشة اللذة انتزع من لحم يديه . ووقع بصر سعاد على اصابع قدم الاستاذ . وأشار الاستاذ الى اصابع قدمه ولم يتكلم وسرعان ما تورمت الاصابع . وحاولت سعاد أن تفهم بلا جدوى . ثم اتصلت بالطبيب . وكان منقذ يقف بالباب ويحدق اليهما بنظرة تشي بالعجز الكامل .

* * *

الطبيب هز رأسه ومسح على صلعته بأصابعه الرقيقة ثم نزع نظارته الطبية عن عينيه فنظفها بطرف قميصه واعادها الى مكانها ، وكانت عيون سعاد ومنقذ والاستاذ عبد الرحيم مسلطة على شفتيه ، وتتنقل بين الحين والآخر الى عينيه . وقال الطبيب انه يعتقد ان القدم مصابة « بالغرغرينا » وانهم ربما يضطرون الى بترها . واشتد عليه الحر وضاقت انفاسه ، فدس يده في جيبه بحثاً عن منديل ، واخرجها فارغة . فناوله الاستاذ عبد الرحيم منديله الخاص ، فمسح به على صلعته وشكره .

وقال الاستاذ دون ان يستوعب الصدمة بعد ، ان بتر قدمه سوف يحول بينه وبين القاء كلمته في المهرجان الانتخابي . قال ان بتر قدمه هذه يعني انه سوف يفقد ساقيه . انه سيكون مثل تمثال نصفي . وانحدرت الدموع من عيون منقذ وسعاد ، فبادر الختيار وناولهما مناديل من الورق !

* * *

وكان أبي في المستشفى المزدحم ، والشارع هنا في جبل عمان مقفر . وأنا

انتزعت ثلاث بدلات من خزانة أبي . وحملتها الى فتحي البقال ابن الحرام . وقلت له خذ هذه البدلات مجاناً ، مقابل ان تراقب سعاد . فأطلق ضحكة لها رائحة الينسون وقال :

- يعني تريدني أن أشتغل جاسوساً ؟

فهززت رأسي بالايجاب . اتخذ وجهه هيئة الجد والاهتمام . وراح يتحسس البذلات وفي عينيه لمعت نظرة خبيثة ضاحكة . وقال انه سيراقبها ليل نهار . ومرت الريح خفية سوداء في العتمة . لم أرها . غير انني سمعت صفيرها ، وأحسست صفعتها على وجهي . وقال المذيع ان الطقس متقلب . وقال فتحي ان كيد النساء عظيم . وانهن مثل الثعابين . وان زوجته طلقته . لأنه سكر ذات مرة ، واحضر مومساً الى الدار . وقد نسي ان زوجته في الدار . وربما لم ينس ، لكنه ظن انها لن تمانع . قد تحتج ، لكنها سترضخ في النهاية . لكنها طلبت الطلاق وصاحت ، ولمت الجيران . ويا للفضيحة ، وفتحي سكران يترنح ، والمومس هربت بالفلوس . وزوجته هربت من البيت . والبلد صغير . فهرب هو من بيته الصغير . واستأجر غرفة في حي « المصاروة » . ورفع كأسه الى فمه وصاح بأعلى صوته وهو يضرب على صدره :

- لا تخف يا منقذ . محسوبك سوف يراقب سعاد دون أن تحس ، واندفع صوته الصارخ مثل قبيلة ضارية غازية فاقتحم نوافذ الجيران ، واندفع الى مسامعهم ، متجاوزاً ممزقاً حاجز الصمت الليلي الركيك .

وعدت الى البيت المنهمك في خوائه . وحدقت الى عمان . كان جبل اللويبدة يشتعل بأضواء باهتة تطل على استحياء من النوافذ . وأطلت آريا وبدأت حزازيرها والغازها كعادتها . وأنا لا أفهم . وقلت لها أنني أحب سعاد واني مخلص لها . فأخذتني الى سريري وقالت انني سأفتقد أبي . وسيداهمني الارق ، لن أعرف كيف أنام . وانها سوف تحكي لي قصة . وسألتني عن مغزى رقودها الى جانبي . وقلت بامتعاض :

- عدنا الى الالغاز والحزازير !

وضمتني الى صدرها . وكان طرياً ، غير انني أحسست بالذنب ، وفكرت بسعاد . وقلت انني كبير ولست بحاجة الى حكايات . وآريا احتقن وجهها حين دفعتها بعيداً عني . وقالت انني ابله ومريض وأنني الرجل الوحيد الذي استعصى عليها . وانني رجل عاجز . وان سعاد لن تتزوج من رجل يتصرف كطفل . وهددتني بأنها لن تعد لي الفطور غداً ، اذا لم ادعها تضطجع الى جانبي . وأنا لا استطيع الحياة بلا فطور ، كما انني لا استطيع الحياة بلا سعاد ولا والدي . وراحت تدغدغني ، ولم تحك لي قصة كما وعدتني . وكانت دموعي تسقط في العتمة وهي لا تراها . وتيدغدغني وأنا لا أضحك . وهي تتساءل :

- لماذا لا تضحك ؟ . . انني ادغدغك .

وأنا ابكي بصمت مستسلم . وأحاول ان لا اشم رائحتها . لكن رائحتها التي تشبه الفلفل تنتقل الى جسدي . واقرر ان استحم غداً . ولم أقل لها أنها عبدة سوداء ، حتى لا يزعل ابي المريض . وتكالبت عليَّ مشاعر الذنب لانني كنت ارغب في ان تظل الى جانبي . فأنا أخاف العتمة والوحدة . غير أنني أحب سعاد . . . وقلبي على أبي . وهو في المستشفى وأنا أريده هنا ، وكنت اريده في المستشفى لأبقى وحيداً في البيت . فتأتي سعاد متى شاءت . وأتناول حليب السباع على راحتي . وانحرر تماماً من دوري الذي يفرض علي ان أكون مسؤولاً عنه . لأن ذلك الدور يعاكس قوانين الطبيعة . اذ كيف يلعب الابن دور والد أبيه وولي امره ؟

آريا تدغدغني . وأنا لا أضحك . وعيني على نافذة سعاد المغلقة . آريا تفتح ازرار قميصها ، وسعاد لا تفتح دفتي نافذتها . غرفتها مظلمة صامتة . وأنا أشعر بالماء . لا اعرف ان كان ماء الدمع او ماء العرق . وأحسست برغبة ملح في القيام الى الحمام ، وحين قمت ترنحت وشعرت بدوار يداهم جسدي .

حين حررتني آريا ، مضيت الى سريري ، اضطجعت عليه اضطجاعة

المحارب المنهك المثخن . وتراءى لي فيما يتراءى للنائم ان شبحاً يتسلل الى البيت ، وأن آريا تتلقفه في لهفة . وانهما يديران آلة التسجيل ويرقصان في الصالة ، وغرفة نوم آريا . . ثم يدخلان غرفة ابي . وتخيلت انني اسمع الشبح يفتح درجاً في الخزانة ، ويستخرج رسائل ابي التي كان يرسلها الى أمي من المنفى . فيقرأها بصوت أثقلته الخمر . ويقهقه قهقهة فاجرة بين الحين والآخر . وأنا تقلبت قليلاً على الفراش ، وحمدت الله انني احلم . فالحالم يدرك احياناً وهو يشاهد حلمه . . انه انما يحلم فقط . ان كل هذه البشاعة البغيضة التي يشاهدها ويسمعها . . ليست سوى كابوس ، منام يراه النائم . . فيحمد الله على أنه يعيش الحلم ، لا الواقع .

* * *

- ١٥ -

قال ابي وهو يعقد ما بين حاجبيه وينفخ مللاً ويدفع غطاء سرير المستشفى بعيداً ، انهم اذا قطعوا ساقه ، فإنه سيطالب بزرع ساق ممثلة جميلة محل ساقه ، وانه سيسمح للجميع ان يتحسسوها . قال انه سيطالب بساقين . واحدة لممثلة واخرى لعارضة ازياء او راقصة . وقال انه سمع ان الانكليز توصلوا الى زراعة اطراف حية لانسان ميت في جسد انسان حي . وقال ابي بلهجة تنم عن تراجع فيه كبرياء ان من حقه الآن ان يعتذر للمرشح الشاب عن المشاركة في المهرجان الانتخابي . وقال وهو يمسح عرق جبينه :

- هل تعتقد انهم احتفظوا بأطراف مارلين مونرو في ثلاجة او شيء من هذا القبيل . تصور ان يزرعوا محل ساقي اليمنى ساق مارلين مونرو

فعلق احد المحاربين القدامى وهو يهز رأسه طرباً ان الشباب سيلتفون من حوله ويربتون على ساقيه طوال الوقت . وقال محارب قديم آخر انهم قد يضطرون الى زرع ساق بقرة مكان ساقيه . فقد بدأوا بزراعة قلوب القردة ،

في البداية ، محل قلب الانسان . واشتعلت عينا محارب قديم ثالث فقال بحماسة من اكتشف مجهولاً :

ـ لماذا لا تسافر الى واشنطن عند ابنتك . الطب متقدم هناك .

فثارت ثائرة ابي . وأنا حاولت ان افتح فمي لاقول للمحارب ان التطرق الى سيرة اختي المهاجرة يزعج ابي . غير اني لم اهتد الى كلمة اقولها . . فصمت .

واقبلت سعاد بقميص ابيض وتنورة بنية ، فتراءت لي ايام المدرسة وقلت ان الذاكرة خائنة مثل سعاد . وكانت تقارير فتحي البقال تنهال علي ، وملابس ابي تنهال عليه . ومحارب قديم يجلس دائماً على طرف سرير ابي ، وكلما اقبل رجل وقور ، فزع اليه ورحب به ، وسكب له فنجان القهوة المرة .

وقالت سعاد ان المحاربين القدامى يقضون وقتهم في المستشفى ليتسلوا . وانهم يتصرفون وكأن غرفة ابي مقهى لهم ، واقترحت ان يتركوه ليرتاح .

فامتعضت وثارت ثائرتي وأشهرت في وجهها تقارير فتحي .

قالت سعاد حين واجهتها بتقارير البقال الدامغة عن الرجل الذي حطم المرسيدس ، انها تحبني حبها لأخيها او انها زعلانة لأنني وظفت فتحي جاسوساً عليها .

* * *

ـ ١٦ ـ

سمعه يقول لسعاد ان الاطباء غير متفقين على عمره الحقيقي . بعضهم ذهب الى القول بأن عمره او عقله (هو لا يعرف الفرق بالتحديد) قد توقف

عن النمو . بينما تدفق الاعمار الاخرى . وهو يصغي من وراء الباب ويفهم ولا يفهم . عمره توقف . أي لا مستقبل له . سيبقى في الحاضر وماضي الذكريات . ولكن متى توقف عمره او عقله عن النمو ؟ بوسع سعاد ان تتوغل نحو الشيخوخة ، بوسع والده ان يتقدم في درب العمر مع انه فقد ساقيه . أما هو . . فسيراوح مكانه . هذه هي النقطة القصوى . هذا ما سمعه . لا يذكر أسمعه من فتحي البقال ، أم من حوار بين والده وسعاد ، أم حوار بين والده وبعض زواره .

كانت سعاد تتأمله وتفكر ملياً : ترى ماذا يجول في خاطر هذا الطفل الكبير ؟ يبدو لي انه يفهم كل ما يجري من حوله . هل يقوم بأداء دور لينتزع عطفنا ، أم انه يكابد فعلاً في حل رموز عالم عصية على الحل ؟ أنا لا ارى فيه خللاً واضحاً .

سأل سعاد وهما يتمشيان نحو الدوار الأول ان كانت ستتزوجه . لم يجرؤ ان يأخذ يدها في يده امام الناس . تطلعت اليه بحيرة ، وتلفتت مرتبكة كأنها تبحث عن حكيم ينصحها . ثم قالت وهي لا تبتسم :

- دعنا نذهب الى « الديبلومات » ونتناول القهوة .

فقال انه لا يرغب في فنجان من القهوة ، وانما في شيء حلو . مثل البوظة او الآيس كريم او الشوكالامو . وسعيا في صمت الى « الديبلومات » . اتخذا مكانهما الى طاولة . وتلفت بعض الزبائن المتناثرين ثم أشاحوا غير آبهين . مالت سعاد نحو منقذ وسألته بعد ان تقلقلت وتململت في مجلسها فما ان خرج صوتها حتى ندمت وكادت ان تسترده . لكن الاوان فاتها :

- هل تعرف انك مريض ؟ أقصد . . هل انت مريض فعلاً ؟

أطلق ضحكة مجلجلة . وقال انه كان مصاباً بالزكام قبل اسبوع ، لكنه تحسن . وبوسعه ان يتناول البوظة . أخذت سعاد وجهها بين يديها وراحت

تتأمل جسده الضخم وعضلاته الجبارة بنظرة متعبة ذاوية . لكنها لم تستسلم كان ينبغي حسم الامور . سألته ان كان يدرك ان عقله توقف عن النمو منذ زمن كما يقول بعض الاطباء ، وان عمر عقله لا يتقدم في السن . ابتسم مدارياً حيرته . وقال انه يعرف بأنه سيظل شاباً يافعاً بينما يوغل كل الناس في العمر . قال :

- أنت ستصبحين عجوزاً . أما أنا فسأظل شاباً .

أخذت يده بين يديها وحدقت الى البعيد ، شعر منقذ بالحرج فسحب يده وتضرج وجهه .

* * *

الحلم الذي أجهضته اليقظة ..

.. عفوا ..

الحلم الذي اجهضه السبات

- ١٧ -

رأى الاستاذ عبد الرحيم في نومه المنام التالي :

أعادوه الى البيت . قالوا انهم يفضلون ارساله الى امريكا . صاح وعارض وعربد ، ولوح بيديه قائلاً انه لن يضع حياته بين ايدي المستعمرين الجدد . وانه لا يرغب في رؤية سحنة ابنته التي تركت كل ما كافح من اجله ، وذهبت . مضت . . هكذا بكل بساطة . مضت تمضي من ماضيه . قال ماذا ؟ قال لتختار مستقبلها . طظ في مستقبلها . مستقبلها في بلاد الاستعمار الذي حاربته ؟ الاستعمار الذي شرد أباها . . وشردها ، بالتالي ، وهي طفلة . لا . . أفضل ان أموت هنا . سأترك مسدسي القديم لمنقذ . فإذا لم يطلق في يوم من الايام رصاصة على الدخلاء . . فإنه سيطلقها على رأسه . . ويرتاح . نعم . . لننقرض او نحيا . هذا افضل من هذه الحياة الرمادية . حياة لا لون ولا طعم ولا رائحة فيها . حياة عجز كامل . الذباب يستبيح بيتنا متى شاء . الغبار يقتحم غرفة نومي حين يعنُّ على باله . الرجل الأنيق . . . لا داعي لنشر الغسيل الوسخ أمام الغرباء . وصور زوجتي المرحومة و . . .

قاطعه الاطباء والمحاربون القدامى ، وقالوا انهم حجزوا له مكاناً على الطائرة ، وأنه سيسافر الاسبوع القادم شاء أم ابى . وان اصحاب القرار « فوق » تكفلوا بدفع جميع التكاليف . وان الأمر صدر من « فوق » . . وانه لا يستطيع الرفض .

ظهرت البغتة في وجهه . لأول مرة ترك نفسه على سجيتها . انخرط في

نحيب هستيري . غمغم والجميع يناوله منديلاً بعد منديل وهو يطويها ويقذف بها بعيداً :

أصحاب القرار فوق تذكروني . . وبعض أقرب المقربين لي في الخندق القديم شطبوني من الذاكرة .

وعاد ليدفن وجهه بين يديه ، والدموع تنساب من بين اصابعه بغزارة ، والرعشة تقبض على كل عضلة من ما تبقى من عضلات جسده ثم تطلقها ، ثم تعود لتشدها وتقلصها من جديد . وكان يردد هامساً بحيرة لا حد لها :

ـ لكنني محسوب على المعارضة . . . تاريخياً !

* * *

في تلك الليلة ، لم يتسلل ذات الرجل الغريب الى البيت . كان المتسلل رجلاً آخر . لص شاب محترف . رآه الأب سأله دون خوف وهو يبحث عن ذهب أو دنانير :

ـ هل أنت عاطل عن العمل يا ابني ؟ هل انت كادح ؟ زمان كنت أناضل في سبيلكم . هل تعلم انني سجنت من اجل ابيك . طبعاً أنا لا أعرف أباك . لكنني ناضلت من اجل طبقته .

استل الشاب الذي توفز مثل قطة دهمها هلع مفاجىء مديته . قال الشيخ بهدوء :

ـ المصاري في الدرج هنا . الى اليمين نعم . في جيب سترتي الداخلية . انني لا أرتديها . . لأنني بلا ساقين . وكنت بلا ساق . كيف يرتدي رجل لا ساق له بذلة وربطة عنق . يريدونني أن أسافر لاتعالج عند اعدائكم . ما رأيك ؟ اراهن انك تتوق الى الهجرة الى امريكا انت الآخر . لعنكم الله . « الكلب يحب قتاله » يحب من يضربه . لن تجد مبلغاً كبيراً . . آسف . لكن . . المهم ان لا تؤذي ابني اذا أيقظته كل هذه الجلبة التي تحدثها .

لا . . اسمع . هذه الميداليات الذهبية . . لا تمسها . خلينا أصحاب . سوف اعدك انني لن أبلغ عنك او عن اوصافك . ماذا ؟ هل بلغك ان هذا البيت بيت عجزة . . حتى جئت في عز النهار ؟ منقذ ينام بعد الظهر . اذا استيقظ لا تتعرض له . لابد انك سمعت انه غير طبيعي ، أفضل استخدام كلمة استثنائي . من الواضح انك اخذت راحتك حين تسللت الى هنا . لا بد انك لا تتوقع مقاومة تذكر من آريا الخادمة . لكن السرقة لن تحل مشكلتك . يبدو لي من شكلك انا كادح وعاطل عن العمل . لماذا لا تنضم الى حزب ذي برنامج جذري يحل مشاكل طبقتك ، ويلغي الاستغلال ويشطب البورجوازية الطفيلية . آه . يبدو لي انك لا تفهم معنى البورجوازية الطفيلية . انها تعني الكومبرادور . . و . . .

كان الشاب يقف جامداً ذاهلاً لا يصدق اذنيه وعينيه . المدية ترتعش في يده . والحيرة تضطرب في اعماقه : هل يطلق ساقيه للريح . . أم يتم العملية السهلة الميسرة .

في تلك اللحظة لمحه منقذ . كان قد استيقظ من قيلولته ، وعنَّ له ان يلقي نظرة اطمئنان على ابيه . آريا كانت عند فتحي البقال . سمع والده يتكلم ، فاعترته الدهشة . هل بلغ الخرف به حداً يدفعه الى الحديث مع نفسه بصوت مرتفع . تقدم بخطى حذرة . فرأى ظهر اللص الناحل ولاحظ انه ضئيل معروق العظام . لم يشعر منقذ انه ضائع الحيلة مهيض الجناح . وانما دهمه شعور بأن اللحظة التاريخية قد بزغت . اندفع نحو الشاب وهو يركز بصره على المدية الساطعة . التفت الشاب ، لكن قبضة منقذ طوقت رسغه قبل ان يتمكن هذا من حسم امره . كانت قبضة منقذ خارقة القوة ، وزند الشاب يعتصر بين الاصابع الغليظة ، يطقطق . . يتكسر . سقطت المدية على الارض . فأخذ منقذ الشاب بين ذراعيه وراح يضغط على قفصه الصدري بقوة جبارة كأنه نسي في تلك اللحظات (لا يمكن لأحد ان يتنبأ ان كان منقذ يفكر بشيء محدد) ان هذا القفص الصدري البشري قابل للتهشيم .

صرخ الأب زاجراً مراً ابنه بأن يتوقف عن قتل الشاب . فقد بدا للأب

ان الشاب يحتضر بين ذراعي ابنه .. لكن منقذ كان في عالم آخر . لا يسمع صوت ابيه ، ولا صراخ اللص وانينه وتوسلاته .

ولم يعد منقذ الى رشده متحرراً من تلك الغيبوبة العنيفة الخطيرة الطاغية ، إلا حين تناول الاب مسدسه القديم من تحت وسادته ، وأطلق طلقة في الفضاء ، فاستقرت في السقف دون ان تحدث اي ضرر ، سوى الصوت المدوي الذي قذفته معها في ارجاء البيت فزلزلته زلزلة رهيبة .

هتف الأب في وجه اللص المنهوك القوى الذي لا تكاد تواتيه قوة للوقوف على قدميه :

- اهرب .

تردد اللص والتفت بوجهه الشاحب الاسمر الى منقذ كأنه يستأذنه . كان منقذ يقف مروعاً واجماً كأنما مسته يد ذهول سرعان ما خطفته نحو الغفلة . أطلق اللص ساقيه لريح خفية ، وهو لا يكاد يصدق ما الذي جرى . كأنما غادر بيتاً مأهولاً بكوابيس لا معقولة .

قال الأب :

- اريدك ان تنسى ما حدث .

اتسعت عينا منقذ ، ورمق والده بنظرة بلهاء ، كأنما يراه لأول مرة بعد فراق ابدي .

لكن صوت الطلقة المدوي دفع سعاد الى مغادرة منزلها والجري نحو بيت الاستاذ عبد الرحيم . وما ان اندفعت من البوابة حتى ارتطمت بجسد اللص المنطلق الى الشارع مثل الومض . مالت ، ثم انثنت . . ثم وقعت على الارض وصاحت :

- حرامي . . حرامي . .

* * *

الستارة

لاحظ منقذ ان تطورات غريبة بدأت تطرأ على تصرفات « آريا » . اذ انها باتت تتصرف وكأنها صاحبة القرار الوحيد في البيت ، وانها سيدته الاولى . يناديها الاستاذ فلا ترد . فإذا ردت قالت بلهجة استعلائية :

- مش فاضية .

او

- بعدين .

وبدأت تتحكم في اوقات افطارهما وغدائهما وعشائهما وما الى ذلك . تغادر البيت بلا اذن ، وتغيب ساعات وساعات ، فإذا عادت وسألها الاستاذ عن غيابها المفاجىء . هزت منكبها الايمن باستخفاف وقلبت شفتها السفلى ، وقالت :

- أنا حرة .

فيثور غيظ الاستاذ حتى يجهده ان يكتمه . فإذا صرخ في وجهها ابتسمت ابتسامة ذات مغزى وقالت بلهجة لا تخلو من تهديد باطني :

- أنا لست مقطوعة من شجرة كما تعلم .

ويفتح منقذ فمه ذاهلاً عما حوله . وينتظر تعليمات ابيه الحاسمة القاسية . . لكنها لا تأتي . امتلأت نفس الاستاذ مرارة وكمداً ، وهده الاحساس بالعجز والاستسلام .

بات الرجل الدخيل يتردد على البيت ليلياً . يتصرف وكأن البيت بيت

الاستاذ ومنقذ في النهار ، وبيته وبيت عشيقته آريا في الليل . يحتسي الخمر . يجلس على طرف السرير . يتكلم مع الاستاذ . يتخذ الكلام شكل حوار من طرف واحد احياناً ، وبين طرفين حيناً آخر . واذا كانت اللعبة كلها قد اثارت في بدايتها مشاعر مختلطة من الفضول والرعب والاثارة واللهفة في أعماق الاستاذ ، واذا كانت المشاهد التي تجري امام عينيه تسليه احياناً ، وتثير في نفسه احساساً بأنه يدفع ثمناً يسيراً مقابل كسر ايقاع حياته الممل الرتيب ، وان هذه الاشارة الصاخبة تستحق ان لا تقمع لانها جزء من الحياة الحارة ، والحيوية المذهلة ، فقد بات الآن يشعر بأن الامر تجاوز كل حدود المعقول والمنطق . وان الأوان لم يفت لوضع حد لهذه الاستباحة الوقحة لخصوصية حياة أسرته الحميمة .

حين قر قراره على ان يضع حداً لهذه اللعبة التي تجاوزت كل حدود . سأل منقذ ان ينام هذه الليلة بالتحديد في بيت ام سعاد . أدرك منقذ من فوره ان والده يبيت امراً خطيراً في نفسه ، ويواريه عنه . هز منقذ رأسه بطاعة عمياء . وقال :

- حاضر .

وقال الأب يتكلف ضحكة ويغتصب ابتسامة :

- يا ملعون . . أنت تهيص حين تنام تحت نفس السقف الذي تنام تحته سعاد .

لم يضحك منقذ ولم يبتسم .
وبدأ الأب يعد العدة لتنفيذ خطته .

في المساء لبث مضطجعاً في الفراش دون ان يغمض له جفن . وقام منقذ بتثاقل من أمام التلفزيون . وقال ان النعاس قد أدركه . ثم خرج وصفق الباب وراءه ، واختفى في العتمة .

خلت آريا الى نفسها ، فأعدت طاولة فاخرة لعشاء عشيقين حقيقيين . جللت الطاولة بغطاء مخملي ابيض من الأغطية التي كانت المرحومة ام منقذ

تحتفظ بها في صندوق الأقمشة الفاخرة الخاصة العريقة . وضعت على المائدة شمعتين واشعلتهما . ثم احضرت جهاز الحاكي القديم الذي يحتفظ به الاستاذ في خزانة خاصة تضم اول مذياع اقتناه في حياته ، وتضم السيف المرصع الذي اهداه اياه سلطان باشا الاطرش ، وزجاجة قديمة بعثها له صديقه من معتقل الجفر الى القاهرة . كانت زجاجة رمل ملون ظل الاستاذ حائراً يتساءل حتى يومنا هذا ، كيف استطاعوا وضع رمال ملونة ذات اشكال محددة داخل الزجاجة . وكان يهم بأن يسأل صاحبه كلما رآه . . . فينسى .

أدارت « آريا » الحاكي . وضعت اسطوانة « ليالي الانس في فينا » ثم رفعت ذراع الحاكي الخاصة ، ووضعت ابرتها بحرص على طرف الاسطوانة . فإذا بها : «يا بابور قلي رايح على فين». وليست ليالي الانس. هزت آريا منكبيها بلا مبالاة . ثم فتحت خزانة أم منقذ . كان الاستاذ يبحلق فيها بعينين واسعتين مبرقتين . سألته وهي تفتش بصعوبة عن ثوب مناسب :

- صاح ؟

قال بصوت عميق :

- نعم .

قالت انها ستشعل المصباح اذن . ضغطت على زر الكهرباء وتناولت مجموعة من الثياب القديمة الانيقة ورمتها على سرير الاستاذ . وراحت تخلع ملابسها وتقيس هذا الثوب ، تحدق الى المرآة ، ثم تخلعه وترتدي آخر . والاستاذ يكاد يسمعها تقول دون أن تتكلم :

- بوسعي ان أعبث بحياتكم ان شئت ، ومتى شئت ، وكيف شئت ، ولا يجرؤ احد على ان يسألني عما أفعل .

استقر رأيها اخيراً على ثوب سهرة هو الاثير عند المرحومة . اشتد الحر على الاستاذ فضاقت انفاسه . قال بلهجة المعتذر :

- أديري المروحة من فضلك .

لم تلتفت . قالت ان الدنيا برد . ثم غادرت الغرفة حين طرقت مسمعها

تلك الخطوات الواثقة الثابتة ، لمعت عيناها غبطة ، وتقدمت من الباب . نقر الرجل الدخيل على الباب نقرته المعهودة . ففتحته . كان يحمل زجاجة شامبانيا من النوع الفاخر . ارتبك عبد الرحيم في فراشه وكز على أسنانه . دارت عينا الرجل في البيت فبان الرضى في وجهه . ضم آريا اليه وهتف :

- ستكون ليلتنا ليلاء . سنشرب بصحة الاستاذ عبد الرحيم . . اسمعي . . خطرت له فكرة جهنمية . استدرك قائلاً :

- لماذا لا ندعوه الى العشاء معنا . لماذا لا ندعو منقذ لينضم الينا . نضحك على ذكريات الرجل الخرف ، ونتلعب بابنه الاحمق .

رفضت آريا الفكرة ، وقالت انهما يبعثان على الملل . ثم انها تسأم منهما في النهار ، وهي لا تريدهما ان يشاركاها حياتها في الليل كذلك . احس الختيار ان اللحظة الرهيبة التي لا بد منها قد حلت . فمد يده تحت وسادته ليتناول مسدسه القديم ، فإذا به لا يعثر على شيء . ادرك ان آريا اكتشفت المكيدة التي يحيكها لهما ، فصادرت المسدس .

كان منقذ كامناً وراء باب الحمام يتنصت وقلبه يخفق بعنف . قال الرجل وهو يتخذ مجلسه على المائدة :

- يبدو لي ان هذا المحارب القديم الذي راهن على مولوده الأبله وسماه « منقذ » لم يسأم الحياة بعد ، فهو يجري معها في المضمار وان قطع الجري انفاسه . سمعت انه يبحث عن مرشح ليخوض معركة الانتخابات الى جانبه . . . هيء . . هيء . . هيء .

كانت يد الختيار تجوب السرير . لعل المسدس انزلق بفعل حركته الى هنا او هناك . . بلا جدوى . دهمه شعور ممض بالخيبة . فانحطم قلبه ، واحس ان آماله قد اندكت كلها دفعة واحدة . وما يدري كيف احتمل الصدمة . وهو يتساءل : حتى حين حسمت امري ، غافلتني ابنة الـ . . . واختطفت المسدس . ما إن اغمض عينيه المرهقتين مستسلماً لليأس حتى سمع انفجار رصاصة مدوية في الصالة . خمن انه سمع هذا الصوت فيما يسمعه النائم من

اصوات وهمية . فتح عينيه ، فإذا به يرى الرجل الدخيل ينهض بتثاقل ، وآريا تثب عن مقعدها كالملسوعة وتصرخ . جعل الشيخ يقرص وجهه ليتحقق انه في يقظة . انقلب الرجل الانيق الفخم على المنضدة دافعاً الصحون والزجاجات والكؤوس الى الارض . ثم حاول ان ينهض بصعوبة ، ويمد يده نحو مسدسه ، فعاجله منقذ بثلاث رصاصات متتالية اصابته في صدره . غطاء المنضدة الابيض تحول الى مستنقع من الدماء . ورشت الدماء النافرة من صدر الرجل الانيق وجه منقذ . ظل منقذ واقفاً في مكانه يرتعش جسده واصابعه والمسدس . وآريا انحطت على الارض ، وراحت تلطم وجهها المطلي بالمساحيق والألوان .

وحين جاء رجال الشرطة . كان منقذ محافظاً على رعشته وذهوله . وبرق الزهو والحزن يشع من عيني الأب . والليل . . في آخره .

* * *

اعترافات منقذ

قال منقذ للمحقق أنه كان يعلم منذ البداية . يعلم ماذا ؟ يعلم ان رجلاً غريباً يتسلل الى بيتهم كل ليلة مع الهواء الذي يتسرب من النوافذ ، والعتمة التي تنبثق من داخل البيت دون استئذان وتتصل مع عتمة الخارج . فلا ترحل إلا اذا اشعل احدهم الضوء . قال انه يفهم كل ما يدور حوله . لكنه كان خائفاً . لا . . ليس خائفاً من عشيق آريا ، لكنه يخاف ان لا يحتمل والده صدمة الصدام بينه وبين العشيق . لا . . ما كان منقذ يخاف العشيق . عشيق سعاد هو الذي يخيفه . لأن سعاد تليق بالحب . أما آريا . . فإن عشيقها لا يستحق حتى الخوف . وأكد منقذ أنه لا يرغب في ان يسمع الأب كلامه هذا كي لا يصفه بالفاشية والشوفونية والعنصرية .

كان منقذ يروي الحكاية شأنه شأن أي شخص سوي . قال انه ليس مريضاً . . ولكنه يتصنع المرض . لأن والده جندي مجهول ، ولأن الامة العربية التي يفترض ان ينقذها منقذ هي الرجل المريض . . لا منقذ . اذ كيف يمكن ان ينقذ رجل مريض رجلاً مريضاً . وقال انه اضمر في نفسه قرار قتل العشيق حين بدأ هذا يتصرف وكأن البيت بيته . لا بيتي أنا وبيت أبي . أنا لا أخافه . لأنني حجر . والحجر لا ينمو . لا تظنوا انني حزين لأنني لا أنمو . على العكس . . بقائي داخل لحظة زمنية محددة تجعلني خالداً . الشجرة تنمو . . فتموت . والانسان العادي ينمو في سبيل أن يموت . . وأنا جامد في برهة زمنية لا اتدفق ، مثلي كمثل الأزل . وأنا احب ان لا أموت . وهل الخلود مرض ؟

انني اخاف شخير ابي ونباح الكلاب . غير انني لا أخاف العدو . ولا أخاف الآخر . ارهفوا الاسماع . المطر ينقر على النافذة . نعم دمه نقر على قميصي . رأيته يهوي مثل بقرة وفي عينيه شهوة الحياة . أنا ما كنت ارغب في قتله . لكن المدس . . مسدس ابي ناداني ، دعاني . وقال ان العشيق سرق صور أمك ، والرسائل . لقد نذرني القدر واصطفاني لانقاذ البشرية من الشريرين . وأنا أعدكم . . بأن أجوب شوارع العالم كله باحثاً عن كل شرير خبيث لأضع حداً لشره وحياته . هذي هي رسالتي : ان انقذ العالم من الشر . أعداء العرب والفقراء . . أنا سأتكفل بهم . لا داعي لأن ترهقوا أنفسكم . أنتم رجال شرطة . مهمتكم تقتصر على القبض على اللصوص والمجرمين ومخالفة السيارات . أما أنا . . فسوف أضع حداً للشركات التي تستغل العرب . الشركات المتعددة الجنسية . سوف أطلق النار على هذه الشركات . قلت لكم انني لست مجنوناً . هل يستطيع المجنون ان يتكلم كلاماً منطقياً مترابطاً مثل هذا الكلام ؟ لا . . لا . . أنا أكثر الناس حرصاً على الحياة الانسانية . إنني لن اقوم بأي عمل يؤذي فراشة . وحبي لسعاد دليل على شفافيتي ورهافتي . لكن القدر اصطفاني لاداء الرسالة . مَنْ هو هذا الرجل الذي يسألني إن كنت اسمع اصواتاً غريبة ؟ لا شك في انه طبيب جديد . طبعاً . . اسمع همس موج البحر الاحمر حين اضع محارة على أذني . لكن الشركات المتعددة الجنسية التي يتحدث عنها أبي ليل نهار تعمل بصمت . من تحت لتحت . وانا سأضع حداً لنشاطاتها بعون من الله . كيف ؟ بسيطة . أمنعها من تعدد الاجناس . أقول لها ان تعتمد جنساً واحداً . نعم ؟ آه . . في المدرسة كان الاستاذ يضربنا . سأقف على سطح بناية عالية وأبول على الشركات المتعددة الجنسية . ماذا ؟ ماذا تقصد بأن هذه الشركات لا يملكها رجل واحد . ليس هناك شيء لا يملكه رجل واحد . الزوجة يملكها رجل واحد . . يعني زوجها . والأقطار يملكها رجل واحد . . يعني رئيس الجمهورية . وبقالة ابو فتحي يملكها ابو فتحي . إذن لا تلف وتدور وتحاول ان تشوشني وتثنيني عن عزمي . سوف ابحث عن اصحاب الشركات المتعددة الجنسية . . واحكم عليهم بالاعدام . على طريقة الكاوبوي ، راعي البقر الشريف . لكن ابي لا يحب الكاوبويز . انه يحب الهنود

الحمر . نعم كان دمه احمر . . وسمعت نـداء المسدس . وأطلقت النـار دون تردد ، لأنني حجر . . وخالد .

* * *

حملوه الى المستشفى وهو يصيح : « يسقط الاستعمار » . قال الـطبيب لابيه ، انه لم ير حالة فريدة استثنائية مثل حالة منقذ . وان الطب يعجـز عن تشخيص هذه الحالة . فهز الأب رأسه ، وأبرقت دموعه وهو يودع بعينيه سيارة الشرطة التي نقلت منقذ . بقي في البيت القديم مهجوراً منسياً . ثم توجه الى الهاتف ، حمله وراح يدور على كرسيه المتحرك في البيت الموحش . توقف بغتة عند الهاتف . تناوله وعاد ليدور هنا وهناك وهو يردد :

ـ سيرن . . سيرن ذات يوم .

ثم صفعه بقوة وهتف بالهاتف العاجز الكسيح :

ـ رن يا ابن الـ . . . رن .

بغتة رن جرس الهاتف فعلاً . هوى قلب الشيخ وقال لنفسه :

ـ ماذا لو كانت النمرة المطلوبة غلط ؟ ماذا لو جاء الصوت من الطرف الآخر ليقـول : أريـد ان اتكلم مـع جـاركم فتحي البقـال ضـروري . . آسف للازعاج . . هل تستطيع ان تناديه ليكلمني . . مثل هذه الحالات حصلت مرات ومرات . ماذا لو كان المتكلم ابنته التي لا يرغب في الحديث معها .

حدق الى جهاز الهاتف . فرأى فيه آلاف الأسرار الغامضة والاصـوات العصية . وضعه جانباً وابتعد عنه بسرعة . لكن الهاتف ظل يـرن ويرن دون توقف . استجمع الاستاذ عبد الرحيم كل قواه ، واندفع بمقعده نحو الهاتف ، وقـد قرر ان يجـازف ويرفـع الـسماعـة . ما ان مست يـد المحارب القـديم ، الجندي المجهول ، سماعة الهاتف حتى يئس الطرف الآخر وأقفل السماعة . . فعاد الهاتف الى صمته المعهود مـرة اخرى . نفـخ الختيار وعـاد الى تجوالـه في ارجاء البيت وهو يردد :

- سيرن . . اراهن على انه سيرن .

* * *

بغتة اطلق جهاز الهاتف رنيناً حاداً مزق حجاب الصمت الثقيل بعنف . انتفض الاستاذ عبد الرحيم او ما تبقى من اعضائه الحية انتفاضة رجل مسته صاعقة . فتح عينيه الناعستين ، ورفع السماعة بحركة آلية توحي بأنه ما يزال في منزلة وسطى بين منزلة اليقظة ومنزلة النوم . جاء الصوت خشناً :

- مرحباً استاذ . أنا صديق آريا وصديقك . . أرجو ان تنادي آريا ، أرغب في ان اتحدث معها على الهاتف .

اعاد الاستاذ عبد الرحيم السماعة الى مكانها بحركة عنيفة . أطل منقذ ففتح فمه دهشة وجحظت عيناه ذهولاً . سأل ببراءة :

- ما بك . . هل تريد تحطيم الهاتف ؟

صك الأب على أسنانه ولم ينبس بكلمة واحدة . وانما عاد الى النوم ثانية في محاولة يائسة متلهفة لاستعادة الحلم الذي كان يراه في منامه .

* * *

قبعتان ورأس واحد

أصـــوات :

نحن على يقين من أن الأصلع والأعور ما كانا يعتقدان ان الأمور سوف تتطور في هذا الاتجاه او ذاك . وللمزيد من الايضاح (ها نحن نعقد الأمور اكثر) . . باختصار يعني ، الأعور يرغب في ان يغير المعمار الوجودي لحياتنا . لا . . لا تقصد العمارة التي نسكن فيها . ماذا ؟ حسن . . تفضل تعبير « العمارة التي نسكن اليها » . لا مانع . الأصلع ندم بعد ان حاول ان يفسر العالم ، أو ان يغيره . لا فرق . قال في محاولة للنقد الذاتي او الجلد الذاتي انه لم يكن يعلم ان الأعور لا يرى الحياة الا من زاوية واحدة ، وبلون واحد لأنه لا يملك سوى عين واحدة .

أما الأعور فإنه يأكل اصابعه ندماً لأنه لم يفكر حين تواطأ مع الأصلع بأن الاصلع لا يعرف الدهشة . فالدهشة اصل التساؤل والتساؤل اصل الفلسفة ، والأصلع لا يتساءل لانه لا يعرف الدهشة ، وهو لا يعرف الدهشة لأنه اصلع . الانسان العادي يقف شعر رأسه حين تداهمه الدهشة ، أما الأصلع فمحروم من نقمة الدهشة المفضية الى الفلسفة . حتى انه يتحسس المناخ والأجواء العامة والرياح بجلد صلعته لا بشعره .

في الوقت نفسه فإن الاعور لا بد أن يكون غير ديموقراطي . فلا يقدر الديموقراطية إلا الانسان الذي ينظر الى الحياة بعيون متعددة . . بعينين على الأقل .

هذه العلاقة المعقدة بين الرجلين جعلتنا نفقد عقولنا وأعصابنا والقرشين اللذين ادخرناهما طوال عمر كامل من الحياة الشاقة كي نؤمن مستقبلنا .

مستقبلنا الذي ضاع . . وها نحن جميعاً نبحث عنه في العتمة . في الطابق الارضي ، وعلى الدرج . العجوز التي تقيم في الطابق السابع لم تفقد مستقبلها فقط . . وانما ماضيها ايضاً . فالكهرباء مقطوعة والاصلع والاعور لم يلتفتا الى اصلاح التيار الكهربائي للعمارة بعد ان اجهزا على المسؤول السابق بتهمة انه كان يقفل الباب الرئيسي في وقت مبكر ويحبس سكان العمارة . . . أشعلت شمعة كي تبحث معنا عن مسمار امان حياتنا ، فإذا بنار الشمعة تميل حيث تميل الريح . واذا بها تندلع في « البوم صورها » . كان « الألبوم » يحتوي على صورها منذ الطفولة حتى يومنا هذا . والعجوز فقدت ذاكرتها وأسنانها ، واذا كانت تعتمد على أسنان اصطناعية لتعويض الاسنان الاصلية ، فقد كانت تعتمد على « الالبوم » للتعويض عن ذاكرتها .

ها نحن نبحث . . جميعنا . . عن مسمار الامان في الظلام . وباب العمارة الرئيسي مغلق بسبب انقطاع التيار الكهربائي . انها ورطة . بحر من التيه خلفنا ، والخطر كامن امامنا . . يكاد ينفجر في أي لحظة . والجميع . . الجميع . . يبحث في الحلكة عن الامان . . نقصد المسمار . . يعني . . آه . . لعن الله عجزنا عن التواصل . فنحن نعيش . . أقصد . . نقصد . . كلنا على كف عفريت .

- ١ -

التقى الجاران على درج البناية . احدهما كان يرتقي الدرجات والآخر يهبط . حيا كل منهما الآخر تحية المودة ثم تابع كل منهما الصعود والهبوط . ما ان اصبح طابق واحد يفصل بينهما حتى خطرت على بال الجار الأول فكرة ملحة وومض في بال الجار الثاني خاطر خاطف . توقف الجار الأول ورفع رأسه نحو الجار الثاني فلم يتمكن من رؤيته ، لكنه استطاع ان يبصر حذاءه البني المغبر وجاربه الأصفر ذا الثقب المستدير بدقة وعناية . قال الجار الأول :

- غريب . . نحن نسكن في نفس الطابق منذ عشر سنوات . وعلى الرغم من ذلك فإن واحدنا لا يكاد يعرف شيئاً عن الآخر .

توقف الجار الثاني وأطل الى الاسفل فرأى صلعة جاره الوضيئة الصقيلة ورأسه الضخم يواري بقية جسده كأنه مظلة واقية .

قال الجار الثاني وهو ينقل كيس البطاطا من يده اليمنى الى يده اليسرى :

- هذا صحيح . الحق على حالة اللاحرب واللاسلم التي نعيشها .

رفع الجار الأول حاجبيه دهشة وسأله متجاهلاً الغبار المتراكم على حذائه :

- السلام والحرب ؟

هز الجار الثاني رأسه ، لكن الآخر لم ير الرأس يهتز . قال :

- لو وقعت الحرب ، لاضطررنا الى النزول الى الملجأ . وهكذا يصبح بوسع جميع سكان العمارة ان يلتقوا ويتعارفوا .

كان الجار الأول على عجلة من أمره لأن زوجته طلبت منه ان يذهب الى الحلاق ليرفع ما تبقى من شعره الى الأعلى ويجلل الصلعة بالخصلات المتبقية ، كي لا تتباهى صديقتها التي دعتها على العشاء بشعر زوجها الغزير . فزوجة الجار الأصلع لا تطيق ان « يكايدها » احد . والحلاق يغلق دكانه بعد نصف ساعة . لكن الجار الاصلع تذكر ان لا ملجأ في العمارة . فوجد ان واجبه الوطني يملي عليه ان ينبه الجار الثاني بأن العمارة بلا ملجأ . قال بصوت مرتفع :

- ألا تعرف او تذكر ان العمارة بلا ملجأ ؟ إذن حتى لو وقعت حرب فإن القذائف ستسقط علينا ونحن بلا ملجأ .

اقشعر بدن الجار ذي الحذاء المغبر وكأنه استحضر بغتة ذكرى مؤلمة كان يرغب في وأدها في اعماق ما يسمى باللاشعور . فاهتزت يده انفعالاً وسقط

كيس البندورة من يده ، فتدحرجت حبات البطاطا والبندورة على الدرج . قال بغضب وغيظ :

- اللعنة ستسقط القذائف علينا كالبندورة ونحن بلا ملجأ . الحق على صاحب العمارة . ينبغي تصحيح هذا الوضع . ثم انه بخيل لا يدير التدفئة المركزية إلا ساعة في اليوم .

وأضاف الجار الاصلع الذي راح يتلقف حبات البندورة التي انهالت عليه كحارس مرمى بارع ان صاحب العمارة ليس بخيلاً وحسب ، وانما هو صاحب شخير مرتفع . انه يسكن الطابق الأرضي . وشخيره الليلي يهز العمارة الثابتة كلها .

ضرب الجار ذو الحذاء المغبر بيده على رأسه وقال بأسى :

- وأنا الأحمق الذي كنت اعتقد ان زلزالاً ليلياً هيناً يهز الارض تحتنا . ينبغي ان لا نسكت على هذا الوضع . يوجد اطفال صغار في هذه العمارة .

أضاف الجار الأصلع الذي احمرت صلعته بعد ان انفجرت عليها حبة بندورة :

- وعجائز . . ونساء . . وأنا أؤمن بالعدالة الاجتماعية .

ردد الجار ذو الحذاء المغبر :

- العدالة الاجتماعية ؟ يا سلام . ثمة احلام مشتركة بيننا . وماذا عن موقفك من الديموقراطية ؟

قال الجار ذو الصلعة الدموية :

- أعشقها ؟

ضرب الجار الذي فقد البندورة كفاً بكف وقال :

- عجيب . يا سلام . سبحان الله . وأنا أيضاً أعشقها .

بحث الجار الاصلع عن منديل في جيبه كي يمسح آثار البندورة بلا

جدوى . فك ربطة عنقه المعدة للسهرة ، ومسح بها آثار البندورة المنتشرة على صلعته . ثم هتف بقلق :

- تعشقها ؟ تعشق مَنْ ؟

هز الجار الذي فقد كيسه قدمه بعصبية وقال :

- الديموقراطية طبعاً . وما هو موقفك من المرأة وحقوقها ؟

مسح الجار الأصلع رأسه بربطة عنقه البيضاء ، فرأى انها تلوثت وتلطخت باللون الاحمر . خاف من رد فعل زوجته . فمسح ربطته بقميصه الانيق الابيض المعد للسهرة ، فلطخ القميص ايضاً واحس بأن ثقته بنفسه باتت مستهدفة . فقال بحزم :

- نفس موقفك .

قال الجار الذي فقد الكيس :

- يا سلام . انت تعرف موقفي من حرية المرأة ؟ . . عجيب . وتؤيده . اذن ينبغي ان ننشيء تحالفاً أنا وانت . . . ما دمنا نتفق على برنامج الحد الاقصى ، ونقوم بتطهير العمارة من المسؤول عنها . هذا الذي أهمل الملجأ والتدفئة المركزية . . وخلافه .

كان الحوار بينهما يهبط ويرتفع دون ان يرى واحدهما وجه الآخر . وهكذا لم يكن بوسع الجار الاصلع ان يكتشف ان الجار الفوقي أعور .

- بكل تأكيد . يا سلام . ما أجمل كلمة تطهير . انها مشتقة من الطهارة .

الجار الأعور :

- وينبغي تصفية كل من ينحاز اليه من الجيران .

الجار الاصلع :

- يا حبيبي ما اجمل كلمة تصفية . انها مشتقة من الصفاء . نحن على اتفاق تام . سنقوم بوجبات اعدام . الوجبة الأولى بعد الافطار . الوجبة الثانية قبل الافطار .

الجار الاعور :

- نتعاهد ان نكون حزباً واحداً ما دمنا على اتفاق . نعم سنعدمهم وجبة اثر وجبة . ما اجمل كلمة وجبة . . انها تثير الشهية .

قال الجار الاصلع وهو يغادر البناية :

- لو لم اكن مدعواً على العشاء ، لدعوتك على العشاء . وجبة شوربة دجاج .

الجار المغبر :

- المهم ان تعود قبل انبلاج الفجر .

الجار الملطخ وقد لعب الفأر في عبه بعد ان رأى القط الاسود يغيب ويختفي .

- لماذا ؟

- كيف لماذا ؟ كي نقوم بتصحيح الامور طبعاً . ينبغي ان نأخذ الامور بأيدينا . تمام ؟

في تلك اللحظة فتحت احدى الجارات باب شقتها وقالت انها سمعت الحوار وانها تطالب بسحق المالك حتى العظم .

- تمام .

يسيطر الجاران قبل انبلاج الفجر على العمارة بعد اقتحام شقة المسؤول واطلاق النار عليه كوجبة اعدام اولى .

* * *

- ٢ -

ما ان سيطر الجار الأعور والجار الاصلع على العمارة حتى دعَوا سكان العمارة الى الاجتماع في شقة المغدور مسؤول العمارة السابق .

قال الرجل الاعور وهو يحمل بندقية رشاش أصغر من كلاشن واكبر من مسدس ، ان العمارة ستعيش عهداً جديداً سعيداً حميماً منذ اليوم . وراح يلعب ببندقيته الصغيرة على طريقة رعاة البقر الامريكيين ، فكان الرشاش يدور ويدور بين اصبعيه . اما الرجل الاصلع فكان يضع مسدساً عادياً على خاصرته . قال الجار الأعور انه منذ الآن فصاعداً سوف يجتمع كل سكان العمارة في الاعياد الرسمية وغير الرسمية لاعداد وإقامة حفلات ساهرة حتى تصبح العلاقات بين الجيران حميمة . أضاف الرجل الاصلع :

- مما يتيح للجيران ان يتعارفوا . . وسوف تكون سهراتنا على انغام الموسيقى .

الجار الأعور :

- لم تضف شيئاً على ما قلته أنا .

الجار الأصلع :

- صحيح . ولكن من حقي ممارسة الكلام .

جار ثالث :

- انا لا احب الحفلات . أنا أنام منذ الساعة السادسة مساء ، لأنني استيقظ في وقت مبكر .

الجار الاصلع :

- الفرح اجباري . الاعتكاف ممنوع . العزلة مرفوضة .

جار رابع :

- انا أيضاًلا أحب الحفلات . لا بل اني اعارضها . لأنها سوف تزعج كل اطفال العمارة وتحول بينهم وبين النوم . انني لن احضر الحفلات لانني اصم . . اقرأ حركات الشفاه فقط . والموسيقى الصاخبة لا شفاه لها .

جارة خامسة :

- وأنا لا استطيع المشاركة في هذه المناسبات لانني نذرت على نفسي ان لا احضر سوى الجنازات وبيوت العزاء حزناً على جدي الذي توفي قبل سبعين عاماً .

الجار الاصلع :

- المسألة ليست مطروحة على التصويت . كلكم سوف تشاركون في الاحتفالات ، يعني كلكم ملزم بحضور هذه الحفلات . نحن نريد اجواء البهجة ان تعم العمارة .

الجار الاعور :

- اسمح لي ان أخالفك الرأي يا صديقي . فقد اتفقنا قبل ان نسيطر على العمارة أننا نؤمن بالديموقراطية والنقد . .

قاطعه الاصلع :

- النقد البناء . . والحرية المسؤولة .

الجار الاعور :

- وماذا عن النقد الذاتي ؟ الحرية حرية . . لا توجد حرية مسؤولة واخرى غير مسؤولة .

الجار الاصلع بصرامة :

- لا يوجد في العالم نقد ذاتي . يوجد جلد ذاتي . وانا ضد جلد الذات لانني ديموقراطي لا اؤمن بالتعذيب . اعتقد ان خلفيتك المتواضعة هي التي جعلتك تزين الجلد الذاتي وتجلله بقناع نبيل غير موجود اسمه النقد الذاتي . النقد الذاتي وهم .

الجار الأعور :

- اذن انت غير ديموقراطي .

الجار الاصلع وقد بدأ يحتقن وجهه غضباً :

- انا غير ديموقراطي ؟ أنا الذي نشأت في بيت لا ينام اهله الا على انغام موسيقى السيمفونية الخامسة لبيتهوفن غير ديموقراطي . وانت العامل العاطل عن العمل . . ديموقراطي ؟ خسئت .

الجار الاعور :

- لن تنجح في استفزازي . لكنني شريكك في ثورة التصحيح والاستيلاء على العمارة . لدي اقتراح : ان تسكن العائلات في الشقق السفلى . وان يسكن العازبون في الشقق العليا احتراماً لحق المرأة في عدم التعب ، وهكذا فإنها لن تضطر ان تصعد الدرج .

في تلك اللحظة خلعت زوجة الجار الاصلع حذاءها ذا الكعب العالي وضربت الجار الاعور بالحذاء على عينه السليمة وقالت مزمجرة :

- انت تفرق بين النساء والرجال . واحد بارد . جنسوي شوفيني خنزير .

اضطرب الجار الاعور ، وثارت ثائرته . فبادر الجار الاصلع وسدد نحوه مسدسه وقال :

- يبدو ان اي حركة لا تصلح برأسين . على احدنا ان يقلب الآخر . وسأفطر بك قبل ان تتغدى بي . أعطني مسدسك . وارفع يديك الى فوق .

أذعن الجار الاعور لاوامر الجار الاصلع . وأعلن عن سخطه وخيبة أمله بأن أغمض عينه السليمة حرداً . وقال بحرج :

- لا استطيع رفع ذراعي الى الأعلى .
- لماذا ؟
- لأن رائحة العرق ستفوح من تحت ابطي . وهذا سوف يؤدي الى ازعاج جارتنا سمراء الوضيئة التي تقف الى جانبي .

صاح الجار الاصلع :

- اغربوا جميعاً عن وجهي . أما أنت فابق هنا حتى اقرر ماذا افعل بك . وانت يا سمراء خليك هنا ايضاً لمساعدتي .

قالت زوجته التي باتت قدمها اليسرى حافية باحتجاج :

- وماذا عني انا ؟

زجر الاصلع قائلاً :

- أنا الآمر الناهي الآن . اذهبي الى شقتنا وانتظريني .

الزوجة .

- هل انتظرك عند الباب حتى استقبلك بابتسامة عريضة .

الجار الاصلع باقتضاب :

- لا انتظريني في الفراش .

غادرت زوجته المكان وهي تقول :

- سبحان مغير الاحوال . حين كان مجرد مستأجر عادي ، كان يذعن لاوامري . وها هو الآن يتمتع بامتيازات جديدة . . ويستغني عن نصائحي .

الجار الأعور :

- هل تسمح لي ان اجلس ؟

الجار الاصلع بكل تهذيب :

- طبعاً . . طبعاً . تفضل . اجلس هناك في صدر الصالون . نحن الارستقراطيون اصحاب تقاليد عريقة . صحيح ان مزاجي الموسيقي تغير منذ زمن ، وصرت اطرب لفهد بلان أكثر من بيتهوفن . لكن « بيت هوفن » جميل ايضاً . . مع انني سمعته ولم اره .

سألته سمراء :

- لم تر ماذا ؟

الجار الاصلع :

- بيت الموسيقار . . بيت هوفن طبعاً . يبدو انك غير مثقفة . لكن حضورك لا يخلو من جاذبية .

التفت نحو الجار الاعور وقال بعد ان حك صلعته وتلعب برشاشه الصغير قليلاً :

- ترى ماذا افعل بك ؟ هل اطفىء سيجارتي في جلدك حتى تصيح وتقسم ان ترحل ولا تعود ؟

الجار الاعور :

- نحن ابناء الطبقات المعذبة في الارض لا نعذب الآخرين . لاننا ذقنا طعم العذاب في حياتنا . نحن انبل منكم . لأننا نرفض التعذيب من حيث المبدأ .

الجار الاصلع وقد أخذ قليلاً :

- حسن . لن أعذبك . هل اطلق رصاصة الرحمة عليك . . ما هي امنيتك الاخيرة . . قبل اعدامك ؟

- امنيتي الاخيرة هي ان يقذف الله الايمان في قلبي . أقصد ايمان العجائز والبسطاء . هل تعلم انني اعاني من القلق والكآبة والسوداوية والارق . لو قذف « الحق » نور الايمان في قلبي لما عانيت .

اتخذت هيئة وجه الجار الاصلع ملامح الدهشة . راح يدور في الغرفة . يذرعها بخطى عصبية ويقول :

- هل تعني انك ترغب في ان اطلق عليك رصاصة . . لأنها رصاصة الرحمة التي ستضع حداً لحياتك الكئيبة .

الجار الاعور :

- بالضبط . فأنا مدمن خمر وثاليوم . انني عاطل عن العمل وشاعر مرهف من اصول فلاحية . حاولت ان اصلي واصوم . استغثت بالحق سبحانه وتعالى . لكن قلبي الاسود منشغل بغيره . قلبي موصد الابواب . فكيف يلبي الحق ندائي ويقذف النور في قلب متقلب منشغل عن الحق بتفاصيل الحياة الدنيا الحقيرة وزخرفها الدنيىء .

يركع الجار الاعور على ركبتيه ويشد بنطال الجار الاصلع ويقول مناشداً :

- اطلق رصاصة الرحمة ارجوك . كنت اهم دائماً بوضع حد لحياتي غير ان الجبن كان يداهمني في اللحظة الاخيرة . فأعدل عن الانتحار .

الجار الاصلع مذهولاً :

- وما الذي يجعلك يائساً الى هذا الحد ؟ اغتصاب فلسطين ؟ التجزئة ؟ انتشار الامية ؟ قانون خدمة العلم ؟

الجار الاعور يتمسك بساق الجار الاصلع . وهذا يحاول ان يحررها من قبضتيه بلا جدوى :

- دخيل عليك . خلصني من هذه الحياة . حيث ينبغي للمرء ان يتعب . ان ينزلق من السرير كل صباح . ثم يغسل وجهه بقطعة صابون ، ثم يعود لغسل وجهه ، ثم يجفف وجهه المغسول بمنشفة . وعليه بعد كل هذا ان يغسل المنشفة كل اسبوع مرتين كي تبقى نظيفة . كي تغتسل من آثار ورائحة وملامح وجهه . ثم عليه ان يغير ثيابه . ان يخلع منامته . ويبذل جهدا مضنياً في سبيل العثور على قميص نظيف . ثم يلبسه وهو يعرف مسبقاً انه سيتسخ . وانه سيضطر الى غسله وكيه . وبعد كل هذا وذاك . . .

يقاطعه الاصلع نافخاً بحسرة :

- اعرف . اعرف . الرتابة والملل قاتلان . لكن قصة حياتك مملة ايضاً . انني امقت سماع القصص الطويلة . لأنني ثرثار واحب الحديث . ولهذا السبب بالتحديد لا اذهب الى السينما ولا أشاهد التلفزيون . فأنا اعجز عن سماع الآخرين يتحدثون طوال ساعة كاملة . . . وانا لا افعل سوى الاستماع . انني مغرم بالحكي . انت مثلاً مغرم باليأس . ولكني لن احقق لك امنيتك . لن اقتلك . خسئت . سوف اتركك لهول الحياة .

الجار الاعور :

- ما كنت احسب ان الطفيليين وأغنياء الحرب وسماسرة اللوحات المزيفة وزعماء السوق السوداء ، يمتلكون الى جانب ثروتهم هذه السادية البشعة . نحن ابناء الرعاع والعامة ، كما تسموننا حريصون كل الحرص على عدم تعذيب الاخر ، ومساعدته على التحرر من الحياة أو المرض او الكآبة . . .

لأننا ذقنا طعم العذاب . فالمعذب لا يمكن ان يتحول في يوم من الأيام الى جلاد . لا بل انه يفضل ان يظل ضحية على ان يتحول الى طاغية . بالمناسبة . . كيف تقول انك ارستقراطي وانت لا تدخن الغليون ؟ انا ادخن الغليون . . هل تحتفظ بغليون وتبغ في احدى جيوب سترتك ؟

يرتبك الجار الاصلع . يستدني سمراء بحركة من يده . يناولها البندقية الرشاشة ، ثم يفتش سترته جيباً جيباً . في لحظة خاطفة اقرب الى الومض ، ينقض الجار الاعور على سمراء ، ينتزع منها الرشاش يوجهه نحو الجار الاصلع . يصاب الاصلع بالهلع . يرفع ذراعيه الى اعلى . يناشد الجار الاعور ان لا يطلق النار . يحاول بغتة ان ينتزع السلاح من يده فيضربه الاعور بقبضة الرشاش على رأسه . يفقد الاصلع وعيه ويسقط على الارض .

* * *

- ٣ -

استيقظ الجار الاصلع قبل ان تستيقظ ذاكرته بلحظات . فتح عينيه . جال بصره في الغرفة الشاحبة ، فلم يعرف متى هو من الوقت ، وأين هو من المكان . رأى الجار الاعور يقف عند رأسه شاهراً السلاح ، وسمراء تضمد جراحه .

بغتة استيقظت ذاكرة الجار الاصلع ففتحت بواباتها الموصدة على جحيم من الصور والاحداث والاهوال المستترة الخفية . آه لو يستطيع تدمير هذه الذاكرة . لو استطاع ذلك ، لتمكن من ترميم نفسه المتداعية من الداخل . انقاض واطلال في يباب لا يعبره إلا غبار احداث موجعة . وقفار موحشة لا تمر بها سوى قوافل الفجيعة . وريح تولول ، تجوب مسرح الذاكرة الخرب من أقصاه الى اقصاه .

الاعور :

- انقلبت الامور الآن الى صالحي . معك حق . المسؤولية في بلاد ما قبل

الرأسمالية والتاريخ والعمارات القديمة التي لم تقم على أسس عصرية امريكية . . . رأس لا يحتمل قبعتين . أنت الضحية الآن .

الاصلع :

- وأنت الجلاد . كنت احسب ان المعذبين في الارض لا يعذبون غيرهم اذا سيطروا على الوضع . لأنهم تذوقوا معنى العذاب العلقم .

الاعور :

- هذا صحيح تماماً نظرياً . لكنه عملياً غير صحيح .

الاصلع :

- لماذا ؟

الاعور :

- لأن السيطرة تعني الامتيازات . أنا لم اعد عاطلاً عن العمل الآن . انني احتل موقع المسؤول وصاحب القرار . ألا ترى السلاح في يدي ؟

الاصلع بكل أدب :

- هل تسمح لي بأن انتاهض واجلس على الكنبة . رأسي يوجعني .

الاعور بخشونة :

- لا مانع لدي .

يتناهض الاصلع بتثاقل . تبادر سمراء الى مساعدته . يتداعى على الكنبة .

الاصلع :

- هل تسمح لي بأن أشبك ساقاً بساق ؟

الاعور متردداً :

- يعني تريد ان تضع ساقاً فوق ساق ؟

الاصلع :

- نعم .

الاعور :

- تكلم بلغة مفهومة . اشبك ساقيك . لماذا ترتدي سترة ثقيلة مع ان الطقس حار ؟

الاصلع :

- كي لا يشم احد رائحة عرقي . السترة الثقيلة تدفن رائحة العرق في داخل المرء . لا يشمها سوى صاحبها .

الاعور بدهشة :

- وزوجتك . . ألا تشمك ؟

الاصلع متقززاً :

- ارجو ان لا تتدخل في حياتي الخاصة . هل تسمح لي بأن ادخن ؟

الاعور يفكر ملياً :

- انا أقاطع السجائر الامريكية . اذا كنت تدخن سجائر محلية فلا مانع لدي .

الاصلع بتهذيب مبالغ فيه :

- الحقيقة انني ادخن الغليون .

فكر الاعور ملياً وقال :

- سوف اسمح لك بتدخين الغليون . أترى . نحن المستضعفين في الارض لسنا غلاظ القلوب مثلكم . لكن الثورة الولود الخصبة لا بد ان تنزف دماً . . كي تنجب بذرة الحياة الجديدة . ينبغي فض بكارتها كي تمنحنا حياة جديدة . ولا بد ، عدم المؤاخذة ، من ان اضربك شفرة حادة النصل او شفرتين . . . كي يسيل دمك الازرق . . ويختلط بالارض . فينتعش « تموز » وتولد حياة جديدة . . وتتجدد الدماء في العمارة . ستالين ضحى بجيل كامل في سبيل ترميم البناء الجديد . ألا ترى الصدوع والشقوق في الجدران والاساسات ؟

الاصلع بهلع :

- ولكنك قلت انك ديموقراطي .

الاعور :

- نعم . لكن الخصب والولادة والانجاب المؤسس على حياة زوجية جديدة واعدة يحتاج الى نزف قطرات دماء . . مثل قطرات المطر . لولا المطر لما رأينا زرع ولا ضرع . سأكون حانياً رحيماً . سأضربك بسكيني لا بشفرتي . السكين لا توجع كثيراً . هل تفضل ان أطعنك في خدك الأيمن أم في خدك الأيسر ؟ اترى انني ديموقراطي !

الاصلع :

- أفضل ان لا تضربني على الاطلاق .

الاعور :

- لا تلحسني كلي . فأنا لست حبيبك . وانا لست عسلاً .

الاصلع :

- حين كنت أنا في موقعك سألتك عن امنيتك الاخيرة قبل الاعدام .

الاعور :

- صحيح . آسف . اعتذر . انا رجل بدائي لا يتقن اللياقة . ارجوك . . عبر عن امنيتك الاخيرة بصراحة تامة . انني رجل ديموقراطي .

الاصلع يتنهد :

- ارغب في ان اسمع صوت سمراء . انها لا تتكلم . لتقل أي شيء . انني مغرم بصوتها .

الاصلع يوجه السلاح نحو سمراء ويقول زاجراً :

- لماذا تلتزمين الصمت ؟ هل انت ممن يسمونهم الاكثرية الصامتة ؟

سمراء تدور فيدور شعرها الاشقر كما يدور كوكبنا حول الشمس ، ويقتبس شعشعتها . يتوهج شعرها ، فيتنهد الاصلع حسرة .

سمراء :

- انتما ثرثاران . لم تمنحاني فرصة للحديث . لوضع فاصلة او نقطة او علامة تعجب بين عباراتكم الخاوية من المضمون الملتزم .

الاعور :

- الملتزم ؟

سمراء :

- الملتزم . نعم .

الاعور :

- انا شخصياً ملتزم . لقد التزمت مشروعاً خاسراً ذات يوم . . فتوقفت عن الالتزام .

سمراء بصوت عذب :

- ما هي امنيتك الاخيرة ايها الشهيد المضرج بالشموس وبالنجوم الساطعة ؟

أيتها الضحية التي ستلطم البشرية وجوهها بعد موتها .

الاصلع بدهشة :

- هل انا مهم الى هذه الدرجة ؟

سمراء :

- طبعاً لا . لكن البشرية بحاجة الى ابطال خاسرين كي تبكيهم . الناس بحاجة الى اختراع أبطال فشلوا في انجاز النصر . . كي يذكروهم بأنهم بشر . . فيواسون انفسهم بمصير هذا ومصير ذاك .

الاصلع :

- ارجو ان تحكي لي ظهري . . هذه امنيتي الاخيرة .

الاعور بحزم :

- لا . أنا لا اسمح بوقوع مثل هذه الحركات في عمارة محترمة مثل عمارتنا . اسمح لك بأن تحك ظهرك بنفسك . هل تعاني من الجرب ؟

يدس الاصلع يده تحت سترته متكلفاً حك ظهره . يسترسل الاعور :

- في طفولتي اصبت مرة بالجرب . اراهن انك كنت تأكل « الكورنفليكس » ايام طفولتك المبجلة . مصاص دماء . أراهن أنك كنت مترفاً الى حد الاصابة بعقدة اوديب بدلاً من الجرب . اراهن ان رأسك كان مليئاً بالاحلام البراقة لا بالقمل . . كما كان رأسي .

بحركة مفاجئة اشبه ما تكون باللحظة الحرجة بين رؤية العاشق لحبيبته ، وبين خفقة القلب استل الاصلع قنبلة من جيب خفي في ظهر سترته ، وسحب مسمار أمان القنبلة . لكن الاعور لم يكن بليداً . ردة فعله أتت سريعة خاطفة كالومض . تصارع الرجلان الى ان صاحت سمراء :

- كفى . اذا القيت قنبلتك فإنك ستقتل نفسك وتقتلنا جميعاً وتنهار العمارة بسكانها . واذا أطلقت انت النار عليه، سقطت منه القنبلة ايضاً وقتلتنا جميعاً . اعلنا وقفاً للعراك . وافقا على هدنة مؤقتة .

الاعور والاصلع بصوت واحد وهما يلهثان :

- موافق .

ثبت المشهد بعد العراك على وضع عجيب . الاصلع يطوي عنق الاعور بذراعه اليمنى . ويرفع قنبلته بيده اليسرى . بينما اتخذ جسد الاعور شكل قوس . فاصبح وجهه ملتصقاً ببطن الاصلع بينما قبضت يداه على الرشاش المسدد بفوهته نحو الجزء السفلي من حوض الاصلع .

الاعور لاهثاً :

- هذا اشتباك عجيب . مأزق ينبغي ان نجد طريقاً لحله .

الاصلع :

- انت المسؤول عن هذه الورطة .

- الاعور :

الوضع معقد فعلاً .

سمراء :

- ينبغي ان تجريا مفاوضات فك ارتباط .

الاعور :

- ارجو ان تخفف من ضغطك على عنقي . ثم انني مصاب بمرض العظماء .

الاصلع بدهشة :

- العظماء ؟

الاعور :

- نعم . الدسك . دسك في الظهر . وهذا الوضع غير مريح اطلاقاً بالنسبة لي . لاحظ انحناءة ظهري .

الاصلع :

- وهل تحسب انني سعيد بهذا الوضع المعقد ؟ لقد بدأت اصابعي التي تضغط على القنبلة تتعب . واذا ارتخت . . سقطت القنبلة وتداعت العمارة علينا كلنا .

الاعور :

- انا زهان . . وكنت يتيماً وعاطلاً عن العمل . كل حياتي سلسلة مآسٍ .

الاصلع :

- وانا جائع . وكنت حرأثم تزوجت . فأصيب عملي بالكساد .

الاعور :

- وماذا كنت تعمل ؟

الاصلع :

- اغازل الصبايا . واسمسر . اقصد انني كنت سمسار عقارات .

أطلقت سمراء ضحكة مجلجلة . أصيب الاصلع بالهلع . قال زاجراً :

- لا تضحكي فجأة دون سابق انذار مرة اخرى . فقد اباغت فترتعش اصابعي . . وتسقط القنبلة . ترى أين ذهب مسمار الامان ؟

الاعور :

- ارجوك لا تضيع مسمار الامان . فقد نصل الى اتفاق . واذا نجحنا في فك الارتباط . فإننا سنحتاج لمفتاح امان القنبلة . . كي نعيده الى مكانه .

التفت الاصلع الى سمراء وسألها :

- لماذا ضحكت ؟

قالت :

- كنت اعتقد انك تتكلم من بطنك ، فإذا بي اكتشف ان الاعور هو الذي يتكلم .

الاعور :

- يا ليتني كنت اعمى . قبل ان أرى هذه الوجوه البشعة ، ليتني كنت منسياً منسياً .

الاصلع :

- يا اخي أنت كئيب فعلاً . تعالي يا سمراء وقفي ورائي مباشرة .

سمراء :

- لماذا ؟

الاصلع :

- لانهم يقولون : وراء كل عظيم امرأة . وانا أحلم طوال عمري بالبطولة والعظمة .

سمراء :

- واذا وقفت المرأة امام الرجل لا خلفه ؟

الاصلع :

- انشغل بها ونسي مشروعه البطولي .

الاعور :

- قلت انني زحمان . ينبغي ان استعمل الحمام .

الاصلع :

- رجلي على رجلك . لا تعتقد انني ابله . انني متأهب واعصابي مستنفرة . لا تحاول خداعي .

- الاعور :

لكنني لا استطيع ان اعملها امام غرباء .

الاصلع :

- نحن لسنا غرباء . نحن جيران ، ورفاق ، وشركاء في وضع متشابك لا نحسد عليه . هذا الوضع المأساوي يوحدنا .

سمراء :

- انتما ورطتما نفسيكما في هذا المأزق المعقد . تحتاجان الى فك ارتباط .

الاعور :

- اذا أعاد مسمار الامان الى القنبلة وسلمك اياها ، فإنني على استعداد لتسليمك رشاشي . وعندئذ . . ترجع المياه الى مجاريها . ينبغي ان استعمل الحمام . أنا زحمان .

الاصلع :

- لا أثق بك . رجلي على رجلك . تذكر ان عنقك في ذراعي ووجودك مرهون بقنبلتي .

الاعور :

- ولاحظ أنت ان فوهة مسدسي تلامس بطنك . وان اصبعي على الزناد . كيف سنحل المأزق هذا ؟

حاول الاصلع ان يفكر في حل لهذا الوضع المربك . لكن الاصلع لا يستطيع التفكير دون ان يحك رأسه ، ويده اليمنى تضغط على عنق الاعور . ويده اليسرى تحمل القنبلة . قال :

- سمراء . . تعالي حكي رأسي بالنيابة عني كي افكر .

سمراء :

- راسك تجلله طبقة من القشرة . أقصد صلعتك مغطاة بالقشرة . ينبغي ان تستخدم مسحوق مزيل القشرة الامريكي .

الاعور :

- الامريكي ؟ آه . . جاءتني فكرة . الامريكان يهتمون بكل عجيب وغريب . اذا استدعت سمراء مراسل محطة تلفزيونية امريكية فإنه يصور مشهدنا الغريب هذا .

الاصلع :

- سمراء . . دسي يدك في صدري .

سمراء :

- انت وقح وبذيء .

الاصلع :

- لم أقصد ما تقصدين . في جيب سترتي عند الصدر غليون وتبغ . أريد ان أدخن . اقترح ان نتصل بمندوب « السي ان ان » .

الاعور :

- عظيم .

سمراء تتناول الغليون ، تحشوه بالتبغ تضعه بين فكي الاصلع .

* * *

- ٤ -

مجموعة كبيرة من المصورين ورجال الاعلام الاجانب تحيط بالرجلين المشتبكين المتورطين في وضع لا يخلو من غرابة ويأس .

مندوب محطة تلفزيون اجنبية يسأل الاصلع :

- سيدي . . كيف ستحلون هذه المشكلة المستعصية ؟

تسارع سمراء فتستل الغليون من فم الاصلع .

الاصلع :

- ينبغي ان نبحث عن صيغة حل وسط .

مندوب آخر :

- وانت يا سيدي . كيف ترى المخرج من هذه الورطة . . التي ورطتنا فيها معكم كل سكان العمارة ؟

الاعور :

- هو يقول ان الحل يكمن في البحث عن حل وسط . وانا اقول قبل البحث عن صيغة حل وسط ينبغي ان نبحث عن مسمار امان القنبلة . فإذا لم نجده ، فإننا لن نصل الى حل وسط . . بل الى قبور وسط الصحراء .

رجل اعلام غربي للاعور :

- هل تسمح يا سيدي ان اضع عصبة على عينك المطفأة كي تبدو كالقرصان ، وتذكر المشاهدين بالراحل موشيه دايان . المشاهدون يحبون الاثارة .

الاعور :

- لا مانع . هل تدفعون لقاء مثل هذه الاعمال ؟ بالمناسبة عيني حولاء . . لست أعور .

الاعلامي :

- مش مهم . مش مهم . المهم ان يقتنع المشاهدون بأنك اعور . . وان تثير صورة القرصان في مخيلتهم .

مندوب شركة تلفزيونية اخرى :

- المشهد جامد بشكل لا يطاق . سوف يمل المشاهدون بعد لحظات . نريد

اكشن . حركة . كأن يطلق الاعور رصاصة من مسدسه لكنها تحيد عن هدفها فلا تصيب الاصلع .

الاصلع :

- ابداً . لن اسمح له بأن يطلق النار . أنتم الامريكان منحازون للاعور . كيف تريد منه ان لا يصيبني برصاصته وفوهة رشاشه ملاصقة لبطني .

المندوب الاعلامي :

- نحن لسنا منحازين للاعور . نحن منحازون للمشاهدين . المشاهد يريد أكشن ، يريد اثارة . ووضعكما هذا ساكن . سيثير دهشة المشاهد لحظة او لحظتين . . ثم سوف يحل الملل محل الاثارة .

سمراء :

- اعتقد انكما تحولتما الى سلعة في يد هؤلاء الاعلاميين الاجانب .

مندوب شركة صنع سترات واقية من الرصاص :

- ما رأيك سيدي ان تخلع سترتك ، وترتدي سترة من السترات التي نصنعها ، والتي تحمل اسم شركتنا عليها ؟

الاصلع :

- يعني تريدني ان أظهر في اعلان تجاري لصالح قمصانكم ؟

المندوب :

- نعم سيدي .

الاصلع :

- لكن هذا يعني خلع سترتي هذه . مما يقتضي ان اتخلى عن قنبلتي ولو للحظات . وقنبلتي هي ضمانتي . لا يا سيدي . سوف يستغل الاعور الموقف . ويطلق النار عليّ ما ان اعيد مسمار الامان الى القنبلة مؤقتاً . كي اخلع سترتي وارتدي قميصك .

واحد من مراسلي تلفزيون اجنبي يشق طريقه بين الناس ويصل اليهما . يسأل الاصلع :

- هل انت ارهابي سابق يا سيدي ؟ هل عانيت في طفولتك كثيراً ؟

ارتبك الاصلع للوهلة الاولى ثم لوح بالقنبلة بيده امام الكاميرا وابتسم بعناية ثم قال :

- آه كم عانيت في طفولتي . ولهذا اصبحت ارهابياً . لقد قتلت ذات مرة خمسين هندياً أحمر ، حين كانوا يحاولون الهجوم على قطار .

- لكن الهنود الحمر يؤيدون نضالكم . . وهم ضحايا مثلكم .

سمراء هامسة :

- فضحتنا يا ابن الحـ . . .

استدرك بسرعة :

- اقصد الهنود السمر لا الحمر عفواً . وقد عانيت في طفولتي . اذ كانت جدتي ذات شخصية طاغية ، وكانت تجبرني على ان « أعملها » في النونية او في الحمام . . مع ان عمري لم يتجاوز الشهر الواحد . تصوروا . وكانت والدتي تأخذني الى السينما لحضور افلام هندية . وكنت أبكي .

التفت المذيع الى الكاميرا وقال :

- وهكذا ترون ان هذا الرجل ضحية المجتمع الشرقي المستبد المعروف بالاستبداد الشرقي .

أطل مذيع ياباني وقال :

- وهو يحب تلفزيونات « توشيبا » كي يتفرج على الافلام الهندية .

صاح الاعور :

- هذا ليس عدلاً . انصفوني يا ناس . يعني لأن جاري الاصلع يطوي عنقي ويدفن رأسي في بطنه . . لا يعيرني احد منكم انتباهه . لا يجوز ان يحصل

هو وحده على كل هذا المجد . أنا شريكه ايضاً في هذا الوضع غير الطبيعي وغير المعقول .

تسلل كاتب استرالي من بين السيقان ودنا من الاعور . وقال له :

- لماذا لا تروي لي قصة حياتك ، فاكتبها وتصبح اكثر الكتب رواجاً ؟ لكننا طبعاً ينبغي ان نغلفل ونبهر قليلاً حتى يصبح الكتاب صالحاً لجائزة نوبل .

فطن الاعور الى ما يدور في ذهن الكاتب الاسترالي وقال وهو يبتسم :

- لا تخف محسوبك فهلوي ويعرف اصول اللعبة . تريدني ان اشتم الشيوعية حتى اصبح مشهوراً . . أليس كذلك ؟ نعم . اكتب عندك : حين كنت طفلاً ضربني ابن جيراننا (وهم اسرة شيوعية) على قفاي مع انه يكبرني بسنوات . ان الستالينيين يضربون الاولاد الصغار على . . قاطعه الكاتب قائلاً ان الهجوم والتهجم على الشيوعية اصبحت موضة قديمة . همس ناصحاً :

- يتحدث عن الاسلام والارهاب . . انه موضوع الساعة .

انتفض الاعور فشد الاصلع على عنقه وضغطه عليه بقوة .

قال الاعور :

- لا . هذا كثير . تريدني ان اتهجم على الاسلام . صحيح انني لا اصلي ، واعاقر الخمر . لكن التراث موجود في كل كرياتي الحمراء والبيضاء . . . اخرجوا جميعاً أيها الاوغاد . بره . الى الخارج وإلا اطلقت النار عليكم . او على الاصلع فتسقط القنبلة وتقتلكم . لن نصبح سلعة بين ايديكم تتاجرون بها .

يهرع جميع الاعلاميين الى الخارج والرعب يلاحقهم .
الاصلع متأففاً :

- أضعت علينا فرصة التحول الى نجوم لامعة .

الاعور :

- يكفينا لمعان صلعتك .

الاصلع :

- انا زحمان .

الاعور .

- انا جائع .

الاصلع :

- نمشي خطوة خطوة الى الحمام .

الاعور متأففاً :

- حسن .

الاصلع :

- أي محاولة للقضاء علي تعني القضاء عليك .

الاعور :

- وأي محاولة للقضاء علي تعني القضاء عليك وعلى العمارة .

الاصلع :

- قد نحتاج الى مساعدة سمراء . . تعالي معنا .

سمراء :

- لن ادخل حمام الرجال .

الاعور :

- لكني سمعت انك تدخلين غرف النوم .

سمراء :

- كذب .

يمشي كلاهما بحذر وحيطة نحو الحمام ، وهما يحافظان على وضعهما الغريب .

يصلان الحمام .

الاعور :

- اقلب وجهك . . لا أستطيع ان « أعملها » وانت تراقبني .

الاصلع :

- أنا أراقب يديك فقط .

الاعور :

- كيف اسحب « السحاب » ويداي متشبثتان بالرشاش ؟

الاصلع :

- انا أقول لك . سوف امسك الرشاش الموجه الى بطني بيدي التي تضغط على عنقك مؤقتاً . . الى ان تعملها .

الاعور :

- اريد ضمانات .

الاصلع :

- في هذه الحياة لا توجد ضمانات .

الاعور :

- حسن . امسك « سبطانة » الرشاش الموجه الى بطنك . امسكها بحرص .

الاصلع يحرر عنق الاعور ، ويساعده في حمل الرشاش الموجه الى بطنه .

الاعور بيأس :

- لا . لا استطيع ان أعملها أمام غريب .

الاصلع :

- ولكنني لست غريباً . هل نسيت أيام كنا رفاقا .

الاعور كالحالم :

- نعم . أيام كنا نحلم بغد سعيد لابناء العمارة .

الاصلع :

- اسمع . . ناولني رشاشك ، واتعهد لك انني لن استخدمه ضدك وأنت تعملها . مقابل هذا سوف اشيح بوجهي وأغمض عيني وأطلق سراح عنقك .

الاعور وقد ألحت عليه الحاجة :

- موافق .

يناوله الرشاش . ويسارع الى دخول الحمام ويوصد الباب خلفه .

بعد لحظات يخرج الاعور وعلامات الارتياح بادية على وجهه . يعيد له الاصلع رشاشه ، فيتناوله الاعور ويعيد توجيهه نحو بطن الاصلع ، ثم يتطاول الاعور برقبته حتى يمكن الاصلع من الضغط عليها . يعود كلاهما الى اتخاذ الشكل الاول الذي كانا يتخذانه . في تلك اللحظة تظهر سمراء وهي تحمل طبقاً من الحساء الساخن .

الاصلع :

- لمن هذا الطبق ؟

سمراء :

- لك . ألم تقل لي انك جائع ؟

الاصلع :

- آه . . شكراً . ولكن يدي مشغولتان . ينبغي ان تطعميني انت الحساء بالملعقة . كما فعلت حين ذخنت الغلبون .

الاعور :

- سأعاملك بالمثل . بوسعي ان احمل قنبلتك بالنيابة عنك . . الى ان تأتي على الحساء كله . ثم اعيدها لك . . ونعود الى ورطتنا .

الاصلع :

- موافق .

سمراء :

- هذا غير معقول . انتما مختلان . انتما عدوان . أنتما صديقان . لماذا دب بينكما الخلاف اصلاً ؟

الاصلع :

- حكي صلعتي حتى أتذكر .

سمراء تحك صلعته . .

الاصلع :

- عجيب. لا أستطيع ان اتذكر .

سمراء تتحدث الى الاعور :

- وانت . . لماذا اختلفت مع رفيقك وجارك ورفعت عليه السلاح ؟

الاعور :

- الحقيقة ان ذاكرتي تخونني . زمان كانت زوجتي تخونني فطلقتها .

سمراء :

- اذن لماذا لا تعتبران ان الصلح سيد الحكام ؟

الاصلع :

- من تقصدين . . منح الصلح أم رشيد الصلح أم تقي الدين الصلح ؟

سمراء :

- اقصد المصالحة . السلام . المحبة . اشرب . .

سمراء تناول الاصلع ملعقة الحساء . يحتسي الاصلع الحساء فيصدر صوتاً مزعجاً .

الاصلع :

- آه . . انا موافق . انا مع السلام والمحبة . لكن الاعور هو الذي أثار الفتنة .

الاعور محتجاً :

- أنا ؟ أنا من أثار الفتنة ؟ كذاب . سأطلق النار عليك اذا لم تلحس هذه التهمة . ثم انك تصدر صوتاً مزعجاً حين تحتسي الحساء . عليك ان تغير عاداتك اذا قررت ان تعيش حياتك معي في هذا الوضع العجيب .

سمراء :

- اذن انتما موافقان على ابرام معاهدة صلح .

الاصلع :

- انا مستعد ان ابوس لحيته .

الاعور :

- وأنا سأقبل صلعته .

سمراء :

- حسن . اذن اعد مسمار الامان الى قنبلتك . وانت اقذف رشاشك من النافذة .

الاصلع :

- ترى اين رميت مسمار الامان حين سحبته من القنبلة ؟ اصابعي بدأت تتعب وترتخي .

الاعور (بعد ان حرر الاصلع عنقه) :

- ابحثوا تحت الطاولة .

سمراء :

- ابحث في جيوبك .

الاصلع :

- يدي تعبت . . العرق ينزف من قبضتي . القنبلة سوف تنزلق . اصابعي تخذلني .

الاعور :

- اصمد دقيقة . سوف اجول ببصري ارض الغرفة كلها .

سمراء :

- هل يصلح الدبوس الذهبي الذي اشبكه على صدري بديلاً عن المسمار ؟

الاصلع :

- أصابعي تتخاذل .

الاعور :

- المهم انني عملت حاجتي وارتحت . لا بد ان اهرب من هذا المكان . ستقع القنبلة وتنفجر .

سمراء :

- وانا أيضاً .

الاصلع معترضاً :

- لا . ابدا . لن اموت وحدي . الموت مع الجماعة رحمة . الموت الفردي موحش . ابقيا هنا والا قذفت القنبلة نحوكما .

الاصلع بهلع :

- اذن دعنا نبحث عن مسمار الامان .

سمراء تبحث عن مسمار الامان في كل مكان وتقول بلهجة تشي برعب هستيري :

- كيف اتقنتما توريط العمارة كلها في هذا المأزق ، وكيف تجيدان الفشل في تخليصها وتحريرها من الورطة .

الاعور والاصلع بصوت واحد :

- هذا ليس وقت النقد الذاتي والتساؤل . . ابحثي عن المفتاح يا ابنة الـ . . .

اصوات : [الليل بدأ يهبط . . والكهرباء مقطوعة . . كيف سنعثر على مسمار الامان ؟ العتمة تعم المسرح والستارة تنسدل والصمت شامل] .

* * *

الذاكرة المستباحة
قبعتان ورأس واحد

تمت المشهد بعد الصراع على وضع عجيب . الاصلع يطوي عنق الاعور بذراعه اليمنى .. ويرفع قبلته بيده اليسرى . بينما اتخذ جسد الأعور شكل قوس . فأصبح وجهه ملتصقاً ببطن الاصلع بينما قبضت يداه على الرشاش المسدد بفوهته نحو الجزء السفلي من حوض الاصلع .

الاعور لاهثاً :

ـ هذا اشتباك عجيب . مأزق ينبغي ان نجد طريقاً لحله .

الاصلع :

ـ أنت المسؤول عن هذه الورطة .

الاعور :

ـ الوضع معقد فعلاً .

سمراء :

ـ ينبغي ان نجربا مفاوضات فك ارتباط .

الأعور :

ـ ارجو ان تخفف من ضغطك على عنقي ، ثم انني مصاب بمرض العظماء .

الاصلع بدهشة :

ـ العظماء ؟

الاعور :

ـ نعم ، الديسك ، دسك في الظهر ، وهذا الوضع غير مريح اطلاقاً بالنسبة لي ، لاحظ انحناءة ظهري .

الاصلع :

ـ وهل تحسب انني سعيد بهذا الوضع المعقد ؟ لقد بدأت اصابعي التي تضغط على القنبلة تتعب ، واذا ارتخت .. سقطت القنبلة وتداعت العمارة علينا كلنا .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، سالمية الجزائر ، بناية سبرح الكتابيكون ، ص.ب ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موسكاف ، ص.ب ٨٦٩٠/١
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٦٧

الغلاف : زهير أبو شايب